

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الخامس / السنة الثانية / أكتوبر ديسمبر 2006



- ... وحاتم المنيين عن العبد - فتح الله كركلي
- الوهج الروحي في حياة النورسي - أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- التأسي بين التبرك والوظيفية - أ.د. أحمد العبادي
- الليل والنهار في القرآن الكريم - أ.د. زغلول النجار
- من "ديتون" الأمريكية إلى "أبت" التركية - أ.د. إبراهيم البيومي غانم

المحتويات



- ٢ ... وخاتم الشين عن العيب / فتح غة غوان
- ٧ التأسى بين البوك والوظيفة / أ.د. أحمد المعادي
- ١٢ اللبل والتهار في القرآن الكريم / أ.د. زعول البحار
- ١٧ لرومية / أ.د. حسن الأمري
- ١٨ مدارس ودروس من "ديتو" الأمريكية إلى "أنت" التركية / أ.د. إبراهيم عام البومي
- ٢٣ الوجه الروحي في حياة الأساتذة سعيد النورسي / أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- ٢٧ أنفاس طمنا إليها، إطلالة على الداعية المرتقب / تيزاد صواحي
- ٣١ الضاربون في الأرض / أدب إبراهيم الدجاج
- ٣٢ الهجرة ... مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة / أ.د. عبد الحليم عويس
- ٣٦ مأساة الأندلس وموقف الغنصانيين / أورهان محمد علي
- ٤٠ العقيدة الإسلامية بين جمال القرآن وتفسيرات علم الكلام / أ.د. فريد الأنصاري
- ٤٤ الخط الفاصل بين الإيمان والإخفاق: البعث بعد الموت / أ.د. محمد سوزجيه
- ٤٨ قراءة في عنوان ما صنف في الحديث والقرآن / د. محمد حكيمة
- ٥٢ مع النبي ﷺ في أحواله / أ.د. إسماعيل شلبي حقان
- ٥٧ العظام البشرية مصدر إلهام للهندسة المعمارية / أ.د. محمد سامي مولات أوز
- ٥٨ شيخ الإسلام مصطفى صبري / أ.د. عمار حذل
- ٦٣ كافي أكلت / جمال أمي



فتح ط محم

ريدة معناها وعملها في أمي صورة وآتورها. سورة الأول سباق الأنوار، وطوفان ضوته الأخير هو ظهوره في العالم الخارقي. ومن جهة أخرى، هو فهرست الأفاق والأفلاك، ولب الوجود وعصارته، وأضواء قمار شجرة الخلق من حيث الغاية، وسيد الإنس والجن أجمعين باسم الخالق الجليل.

هو فوق الوصف أبداً من حيث جوهره وموقعه، لا نظير له باعتبار ذاته، فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية، وبرهان ظاهر بالرسالة التي تصلها. شهرته تمتد إلى ما قبل آدم النبي، وحياته لمحت به الألسن من قبل وجوده، وقدمته تاج رؤسنا - إحسان للإنسانية جمعاء وجوده أصغى للؤلؤة في صدقة الوجود، ورسائله أشمل الرسائل علمه زبدة العلوم كلها، وعرفانه منبع نقي وصاف يجمع حوله أضواء الواسع، وأفق كمرصد قرح إليه الأرواح الصافية المتطلعة إلى اللانهاية. العيون حظيت بقراءة

الفصول الفصل الأخير حول حقيقة "الله والكون والإنسان" هو حضرة محمد ﷺ الذي هو شجرة الوجود، والعلّة العالقة لكتاب الكائنات، وأقوى صوت للدعوة إلى الحق تعالى. إنه هو المحرر الأخير "عن الغيب" وعن "غيب الغيب"، وهو المفسر السديد للأشياء والأحداث، وهو طيبين للعلاقة بين الإنسان والخالق من غير أدنى لبس، وهو الموضح عياناً وجهاراً مقتضيات هذه المناسبات. هو المرشد إلى القرب الرباني، وهو الأول والأقرب إلى الحق تعالى من جهة، والأخير والأعظم أمانة من وجهة أخرى.

صاحب القول الفصل

الملكوت المتظلمة، والأنبياء بشروا به، والأولياء غرته التي تفتش منه النور. مضكاة الشوة اتقدت به بداية، وبه أيضاً ظهرت



وحماية النبوة، يتشور بـ "الروح الأعظم" ويصير بُعداً مهماً من أبعاد حقيقة الإنسان، ويمرور الزمان بهذا باستشعار الباطن مع الظاهر، والآخر مع الأول.

وإن للوجود طاهراً وباطناً. الطاهر يُرى بالعين ويُدرك بالحواس، ويُقوّم بالعقل والمحكمة العقلية. أما الباطن فلا تفتح أبوابه إلا من قبل الله لمن خلّق تجلّياً يستشعره، فيتم الإحساس به صورتاً ونفساً ولوناً ونقشاً مختلفاً عن الظاهر. فالأشياء يستمعون إلى هذا الصوت والنفس عوجات مختلفة الأطوال مدى الحياة، ويتصرفون أبداً مقتضاه.

وإن حضرة سيد الأنام، عليه أكمل التحايا، رمزاً وصوتاً للعالمية للطفة من حيث جهازه الخاص المتناسب مع حاله الخاص. فالله يُسمع ما لا يُسمع، ويرى ما لا يُرى، ويُقدمه على الروحانيين بإكساب روحه ماهية فوق الزمان والمكان أحياناً، فيتقدم على الملائكة، أكرم عباد الحق تعالى، فيصل إلى "قاب قوسين أو أدنى". وله مكانة وقدر متماز ووطيد عند الخلق كدرجته عند الحق تعالى؛ فإنه ما حاد عن الاستقامة قيد شعرة في عمره كله، ووُثق به الجميع من صديق أو عدو، وبلغ المحاطين بما أوحى إليه من الحق تعالى في هاته الرباني، ولم يُدكر إلا بالعصمة، ولم يُعرف إلا بالصوبك الإلهي، وقرأ -حاشا- الطيبة وما وراء الطيبة قراءة سديدة، وفسرهما تفسيراً صحيحاً بروحه النبوة وبغطته الباطنة المتفتحة على عوالم المادة وما وراء المادة؛ ولذلك هرع إليه من غير توان صاحب كل وجدان نظيف متسره عن أي حكم مسبق، وخضعت له أعصى النفوس فرداً، واستسلمت له أدنى الأذمة قاطبة؛ إذ قرأت في رسالته غاية خلق العقل. وبفضله تسليخ الإنسان من الحيوانية والجسمانية وتوجه تلقاء الحق في مرتبة حياة القلب والروح. هو - باعتبار الحق الوجود - المفتاح السري لكتاب الموصول إلى الوجود الخارجي، وهو - باعتبار تحقيق الهدف من خلق الوجود - المهادي إلى الصراط المستقيم المؤدي إلى الحق تعالى، وبعيد شعاعة السعادة الأبدية.

كل الأنبياء الذين مضوا من قبله قد قالوا ما قاله... والأولياء والأصفاء من بعده كلهم أجمعون - وأحارهم الحارفة شاهدة على دعواهم - صدّقوه وشهدوا على صدقه، وأخروا واعتبروا بأن حظهم من مه. فإنه قد قال "الله" ولغت الأنظار إلى التوحيد. وإن أصوات الأنبياء والرسائل وأفاسهم، ومشاهدات الأولياء والأصفاء وكشوفاتهم طراً، تؤيده وتسنده.

الأشياء على وجهها الحقيقي بفضل النور الذي نشره في الأرجاء. والأذان استمعت في ترانيم أقواله إلى أنعام روحانية من جواهر الكلمات لم تسمعها من قبل. وكم سرّ ظهر عياناً بيّناً، وكم فكر كثير صفا إلى الصقوة في أحواشه. من رآه واستمع إليه زال عن روجه الصدا، وانقضى عن عيه الضباب. وما أن أحر عن أولي كل أول، وآخر كل آخر حتى عُرف كل مجهول عجزت عن إدراكه عقول البشر، وتعلّى غير المعلوم بلباس العلم والمعنى، وأصبح الوجود كله قصيدة تسعيرة تشد على كل لسان، وتعاين ألبداً يُشعر غاية الخلق ومقصده.

العلوم ما هي إلا فطرة من نور علمه، والحكمة برمتها رضية بكرة من ضلال معارفه. الأئمة كلها لا تعدل خطّة من لحظات عمره. كرة الأرض التي لا تزن حثاج بعوضة في الكائنات، هي عالم لا يعدل الوجود بسر كونها مسقط رأسه. هو المقدم في التعتن والبرنامج القدري، وهو صاحب القول الفصل الأخير في قضية النبوة، وهو الفشارح الحقيقي للظاهر، وهو الباطن بأسرار الباطن. هو سلطان عرض النبوة مخلقه خلقاً ملائماً لتلقي الحقائق العلمية والعقلية من روح القدس، وبشعوره الرحيب، وإدراكه الرفيع، وبقلبه المنسج لما وراء الملكوت، وبسر استعداده للاستطلاع على ما وراء الورد. وهو أفصح ترجمان لعالم الرسالة الإلهية مبلغاً ما تنفاه إلى الأرواح والعقول من غير عارض أو خلل، كجهاز استقبال توراتي منفتح على الماورائيات.

وهو - مع أن له خصوصيات ذاتية سامية - بخيرنا بمقتضى نبوته عن الحق تعالى، ويُعرفنا به، بذاته وأسمائه وصفاته، ويُحفر فينا الشعور بالمسؤولية أمام الحق تعالى. ومن هذه الجهة هو معرف ومعلم أكثر مِن ما لا يبين ويشعر أرواحنا لما لا يُدرك. أما من جهة تليق الأحكام الدينية وتعليم القيم الإنسانية وقتيل الأسس الأخلاقية، فهو مُشترع وموظف وواضع للقرانين وقول شارح لحقيقة الحقائق.

الجامع بين الظاهر والباطن والأول والآخر

إن النبوة والرسالة ونمت وصايتهام الأولية، كما أنها متفتحة على الظاهر، كذلك هي "مُفتحة الأبواب" على الباطن. وإن عقول هؤلاء (الأنبياء والرسائل والأولياء) أيضاً قد اصطبت بصيغة هذا المنصب الإلهي... لكنها تقف من ورائهم بخبرات، تنظر الأوامر منهم. إن عقلاً مدركاً لحدوده - مثل عقولهم - داخل في



تأثيره ويتعلق به إلى أبد. وعنده -مع هذه المحاسن والمعالى- بيان يأخذ بالألياب؛ فإذا تكلم أيكم أمره خذلق اللسان، فيغوصون في مراقبة السكوت، وينصرفون في تيار جذب قوله.

هيته عليه الصلاة والسلام

وربك شيئاً من تفصيل ما قلناه آنفاً؛ لقد وهب الله تعالى السعة في خلقته الداخلية والخارجية، فهو مهيب في تواضعه، حذاب في شخصيته... حتى إن دخلت إلى حصرت أحد النفوس كراً وغروراً، ارتعشت من هيته، وتصرفت بعير ما توت وتصورت؛ وإن رسل كسرى للشركيين دخلوا وأجروا حبال صرح النهاية هذا. ومع هذه الهيبة، وهذا الجد والوقار، كان فيه لين عجب يجذب إليه النفوس، حين ليحس من يعرفه عن قرب بأنه أقرب إليه من الولد والأم والأب وكل حبيب، بل يكاد "ينحن" عليه فلا يرد أن يعادر مجلسه أبداً. أحواله وتصرفاته كلها تبت نقة عميقة في القلوب، وأقواله وأفعاله وملامحه تدل على حصوره الدائم أمام الله تعالى. بيت الأمان حوماً، وينشر الاطمئنان في الجميع حُرماً ورُماً.

فقد عُرف بالأمين أولاً وآخرأ... هالأم يسع من نظره، وكلامه يبور بلا توار حول الأمن، وفي حضوره تسمع نغمت الأمن. وكانت تصرفاته وعقله وروحته وعواطفه ومطغته في توازن وانسجام تام. وإن ذكاه لشقداً، وفراسته السديدة، وتباه الذي لا يعرف التردد، عزمه وإقدامه، إستراتيجيته المحيرة للعقول مع ثقبته الكذب والخداع، صبره وثباته حيال أشد الأهوال، وتبسّمه في وجه للصائب، وقراءته للملمات قراءة صائبة، واستخلاصه منها عراً مليء الكتب، وحلمه الوطيد، وقاره الراسخ حيال الأحوال الموجية لأشد العف والغضب والخدّة، هي بذلة يسيرة من حصاله وخلقه التي تبرز شخصيته المتميزة بين البشرية، وتفصح عن مقامه ومكانته ووقفته العريضة التي تناسب هذه المكانة السامية. فله للمواقف البطولية حيث يصطرب الجميع ويذهلون، إذ تبدل بها المرحمة إلى الظفر، والفر إلى الكر، فترفل رايات النجاح الإستراتيجي في حصن المارك ودخان الحروب. كان بين أهله رب عائلة لا نظير له ولا شبهه، وبين أصحابه معلماً ومرشداً كاملاً يذلل شغاف قلوبهم بلبه الأخوي، وهادياً شديد الرأي لا يخلل من اتبعه، وخطيباً سيداً على الكلام، ذا قلب ربابي، وحكيماً أساداً في استخدام العقل، ورئيس دولة لم يعرف

وكان صرحاً للإيمان... يعيش ما يقوله تعجراً أدق من شعرة شطرت أربعين مرة، ويرن تصرفاته بموازين الأخرة الدقيقة، وبميا حياته في عمق كانه يرى الله، وفي عمق رؤية الله له. هو الأرفع حساسية في تصرفاته، والأعظم جذاً في لمسؤولية، ويسعى حثيثاً في أثر حسن العاقبة ولا يبعد طريقة عين عن الهدف، بل يهرع أبداً إلى النقطة التي اخترعها... وإذا يهرع إليها، يمد للجميع حطوط للعاني حُرماً حُرماً من الروابط بينه وبين الله تعالى.

شارح معنى الوجود

وهو الذي شرح معنى الوجود فربطه بصاحبه الخفي، وبين الحكمة المكنونة في لب الأشياء والأحداث، ودكرنا مراراً بأننا لسنا وحيدون هنا، فشرح صدورنا بإشعار أرواحنا بأننا تحت الرعاية الربانية، وأزال الوحشة من نفوسنا وسما بأرواحنا إلى العلياء بنفحات أنسه، وسقانا مشاعر السكون والاطمئنان التي نشعر بها في ربوعنا وبين أهلينا. فإن كنا نحس بأن كل شيء في عمله في هذا النأوى الباطني، وإن كانت قلوبنا تتفق بعشق الحقيقة، وإن كنا نطلق أنظارنا في آفاق الكون الشاسعة مفكرين متأملين، فهذا كله بفضل النور الذي أوقدته في عقولنا، وكل ما نعرفه عن الإنسان والوجود والكائنات برمتها، فهو تفصيل لمحمل ما أودعه في نفوسنا، ونمو لبطور الحقائق التي بها في أرواحنا.

هو بابي الإنسانية من جديد، ولا يزال، ويسقي نايماً، في أمسها ويومها وغداها، وكما بدّل في عصره بمعملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيم صالحة، وسلوكيات غير إنسانية، والمخافات سوء الأخلاق والمراج المعروسة في الطبائع من آلاف السنين، فسُيُسمع صوته -يقباً وحفاً- للجمهور اللبّاني، للفرط عقدها اليوم، ويضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، ويظهر قوة رسالته... وممّه -إن شئت- بتجديد القراءة السديدة والتفسير الصائب في حقيقة (الإنسان والكون والألوهية) مرة أخرى، وأعاد الإنسان موقفاً يناسب دوره اللائق به في الوجود.

لقد أرسل حصرة سيد الأنام (عليه ألف ألف صلاة وسلام) برسالة تتعلق بكل أحد وكل شيء. وكان يوقّ وظيفته حقها ويؤدبها بعق فتمتلي بحببه الأهدنة وتجلذب إليه القلوب. فهو يفتني تكاملاً شاسعاً في خلقته، وصداقاً مقطوع النظر في تصرفاته، وربانية تتجاوز جوانبه للمادية دائماً في سلوكياته. وهو -فرق هذه الخصائص الطاهرية الباهرة- صاحب أخلاق رفيعة لم يظنها أحد، سماها القرآن الكريم بـ"الخلق العظيم"... حتى إن من يدخل وحابه لمرة واحدة من غير أحكام مسبقة، لا يد أن يدخل تحت



ومسح مهاتته الرائعة المحيرة للعقول الحاصلة من علو الأصالة
وسمو النجابة وصلته الوثيقة بالحق تعالى، كان متراصاً أشد
التراصع وكأنه يجمع بين الأصناف، حتى إن من لا يعرف حصانه
ومسجابه المذكورة آنفاً، كان يحسه من أجاد الناس، كان لا
يعر اهتماماً بتعظيم أصحابه ورفقهم له، فيبعد معهم ويأكل
ويترب، ويستتر عنهم قولهم قولهم وخصوصياته السامية التي ترمز
ها عنهم أشد الستر حتى لا يتعرفهم الناس، ويربح من حوله
أحياناً تلعب من ألوان التحولات الخيالية من العورة والحكمة
ولكساح أحياناً لكي لا يتقل عليهم عبء ما في طبعه من المهانة
والعظمة والمحاكاة مهر يزين عرقته بالتواضع، ويألف مهاتته
بالشفقة، ويعلم ثوبه (الأسود) ليريد خلاوة إلى شهد مقامه
وحلو طعمه.

كان حليماً ومأموناً ورزياً، لينا أعظم الذين حتى في الأحيان
التي تستمر فيها وكثر مشاعر الحقد والكفر والغضب، فيحذف
شدة الطيش وحدة الغيظ،
ويسكن ببطء وأحلى عداوة
أشد أعدائه، وكان كلما أريد
مسحه إلى مرقف الحشم قرر
إلى موقع الحكيم، كان صمراً
ومسحاً ما لم تنتهك حرمة قد
تعالى أو يهضم حق عام، وفي
السيرة النبوية مئات الأمثلة
والشواهد على عظمه وصفحه
ومسحاته.

وفاءه بالعهد عليه الصلاة والسلام

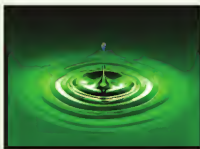
وما كان له نظير في الوفاء بالوعد، فلم يتلف وعداً قط ولو مرة
واحدة، ولم يرجع عن قول أبداً، ولم يقل شيئاً تم حاله، أو دق
نفيه خلاف الواقع حتى وإن كان لئام، سواء قبل البعثة أو بعد
بله شرف النبوة. فسيرته صرح للأمانة والصدق والوفاء، وجرمه
ضد من يهون العهد والميثاق معلوم ومشهور.
كان سلطان عالم الميثاق، ولقد بلغ جوهري القول قيمته
الحقيقية على لسانه، لم يمسك بيده قلماً ولا قسطاساً، ولم يتطالع
عياه كتاباً، ولم يجلس في حلقه درس، ولم يفتح قط إلى أن
يقول لأحد "أسناد"، بل كان أسناد الشكل في الشكل، وما من

منه، وقائده عظيمًا يحول الخرائص إلى التصارات عملة واحدة.
فأنواع الكمالات كلها تبلغ فيه انثروة العليا، لكنه يتصرف أبداً
بين الناس كمرد من الناس، وبعد نفسه واحداً منهم، يوديه - من
كلية تواضعه - أن يُسند الناس إليه - أبداً منهم - مقامات رفيعة
هو حقيق بها أصلاً، فيحذر أصحابه بين فئة وأخرى من ذلك
تجديراً شديداً قد يصل إلى حد التوبخ أحياناً.

كان متداف "علمه عايقاً" لوجوده، لكنه ما كان يؤبه اهتماماً
نفسه حاح بعرضه، رفع السلاطين إلى العروش وأنسهم التيجان،
لكنه عاش راحداً أشد الرشد، فكانه صائم عن الدنيا، فأشبع ولم
يأكل، وأنس ولم يلبس، وهتف بالسكر مئات الثرات حبال
قطرة من بعمق مستشعرا فضل الله عليه (وحسانه على النجوم،
هو يسابن الملاكمة في مصمار المعرفة الربانية واللحمة والخنية،
أجل، كان في الدنيا، لكنه لم يكن دنيواً، بل كان في طريق
النعني... بل لم يكن مرتبطاً حتى بالنعني أولاً وبالذات، ذلك

لأن قلبه كان معقفاً مرده، وعبه
في آثاره وفي أمثاله الحسني التي
تضفي على آثاره ألواناً وصوراً
ومحاسن شتى، كان ينظر إلى
الدنيا وكأنها حليج للنعني،
ويراهم وكأنها مرعة يروع
فيها ويتعصب، ويجعل الحاصل
إلى الأخيرة، وكان يهتف
ويروح ويعندو كالرياح التي
تجمل الدور وتطير مبناً ومثالاً

تودعها أساساً للعلن والتماع، فكان يعنني بالمعراء وبرعاهم،
ويتطعم الجباة، وكثيراً ما بيت هو جاعلاً حاربي البطن، إنه
سلطان أعاني الدنيا والأخرة، لكنه إذ ارسل إلى ربه، لم يورت
أهله قصرًا ولا عقارًا ولا مالاً ولا رهنًا، فقد عاش عيشة تليق
به، وقرم الدنيا تقرباً يناسب شخصيته، ورحل منها رحلة تواضع
مكانته وعظمته. ومعلوم أنه لم يكن تاركاً للدنيا غمماً، كما أنه
لم يكن جاعداً ظاً ومشغولاً بها فقط، فإنه كان يهتم بالدنيا بقدر
حجمها وفائتها، ويهتم بالأخرة وما وراء الأخرة بحسب خلودها
وسرمديتها، فيحدث مرقفه منهما نداء على هذا التصور.



الواقع، حتى إن ألد خصومه الذين يترقبون زلة منه ليوقعوا به، لم يجرؤوا على إسناد الكذب إليه، بل عجزوا عن ذلك. واختل أن من صان لسانه وكل تصرفاته عن محاولة الواقع صورياً أدق من الشعرة، من طفولته إلى شبابه، ثم إلى سن تتصرفه بالنسبة في الأربعين، لا يتصور أن يقوم بادعاء النبوة زوراً، وإن تصوراً كهذا شيء يتجاوز الإنم إلى تعصب كغري أعمى، واستهانة بالعقل والسطق. هذا، وإن تلبهاته وموضوعات أحكامه رحبية وسعت الماضي والحاضر والمستقبل، ومحتوياتها مشوقة تتعدى عقول البشر؛ فهو يتكلم في العقائد، ويضع الأحكام في العبادات، ويتحدث في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، ويتقدم ما يقول، ويخفي ثمرات ما يفكر، ويتخذ من التاريخ شاهداً على صواب الأسس التي وضعها فيودع هذه الشهادة أمانة في الضمائر النصفية المبيدة عن الأحكام المسبقة، وبعد ذلك يصطف بحتم التصديق آلاف المفسرين والمكرين والخوفا المقتضين في قرون كثيرة، ومئات العالسة، على ما قال قول، وعلى الأسس الاجتماعية والاقتصادية والنظم العسكرية والإدارية، والقواعد التربوية التي وضعها. ورد عليهم جميعاً أن ملايين الأولياء والأصفياء يؤيدونه تصديقاً في كل حكم وفي كل بيان لهم، ويهتفون أنهم بلغوا المراتب والمقامات هدايته. لذلك فإن من يقول له "لا"، فهو إما يحول لا يدري ما يقول، وإما يائس بسوء الخط معسول النماغ. فما شهد الماضي والحاضر أحدا مثله استطاع أن يقول شيئاً أو يضع أحكاماً ثانية في مسائل كثيرة مختلفة، ولا سيما في موضوعات تتطلب حكمة واختصاصاً ومهارة، فيدوم طرباً وندياً أبداً مع الدهر. وكما أنه يبيع الزمان النورسي رحمه الله "إن الإنسان قد يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال في بضعة قرون أو علوم. لكن حضرة ذاته صلى الله عليه وسلم أدلى بدله في شؤون دقيقة تتعلق بالوجود والأحداث كلها، وقال أقصوالاً تافهة في كل زمان ومكان، وبأسلوب يبيع في المهارة والحكمة، وباطمئنان من غير تردد وتلكو، لا يملك حياله من رآه وعرفه، ومن تمعه فأضمت إليه من غير حكم مسبوق إلا أن يقول: "أمنتُ وصَدَقْتُ". ■

(١) (الرحمة عن الفريكة: نحو عمر لعلى أعلو المومنين)

(٢) (الناووت: الطبعة البشرية)

(٣) (الحجاري، لمهاد ١٩٢٢ مسلم، للمساعد ٩)

شيء يستطيع أن يمس أسسها بذهنية الكلية. وفي هذا حياة من الله لأوامره الإلهية أولاً، وصيانة لمملكات النبي (الطهارة ثانياً وثالثاً)، من التأثيرات والتصورات الخارعية، حتى لا تُكثّر المكسبات الدنيوية والعلومات الأجنبية تفسر الأوامر الإلهية، ولا تتلون بلون غير لونها، أو تصب في قالب غير قالبها. فكان أمياً هذا المعنى -وتفوساً هذه لذلك الأمي-، ولكن له أقوال وأحكام وقرارات في شئ الشؤون من أمور الدنيا والعقلي -باعتباره أستاذ الكل- حيرت وأدهشت الكل؛ بدءاً من المتبحرين في العلوم وامتداداً إلى فحول العاقرة، وإلى العقول الضليعة في الفلسفة، وإلى النفوس الضالقة والأرواح المستتيرة. والتاريخ يشهد أن أحداً لم يبل من رصانة بيان، أو بقدح في حكمه، أو بتجاسر على أن ينتقص من إجماعه.

كان خزينة للمعرفة وحوضاً للعلم نقياً مثلاً، لم يعرض أحد على إجماعه عن الأحداث العارضة، ولا إجماعه عن شؤون الدنابات ولذئاب وثقافات والتقاليد والأعراف العائدة إلى أهم بائدة في التاريخ، وما كان لأحد أن يعرض، لأنه رسول الله، ومصدر علمه السديد الذي يصب في ذلك الخوض وتلك الخربة، هو الله تعالى. فكان في البيان سلطاناً بيان وصاحب القول الفصل، وكان في المطلق صرخ حاكمية، وفي الفكر بحرراً محيطاً كقولاً لصحافة مهمته ورحابة رسالته العالمية. إن عباراته من السلاسة والانسباب، وبيانه من الوضوح والصفحة، وأسلوبه من العزارة والتلون والهاء، بحيث يستطيع أن يعبر عن حقائق ملء الأرض في جملة أو جملتين، ويضن شؤوناً تُسَعِّج المجلدات في كلمات، ويطلق إجماعاً، وأما جواهر، يُبردها عند أساطين التفسير والتأويل. وفي حديثه: أعطيت جوامع الكلم" إشارة منه إلى هذه الرحاب القصيدة.

وكان الناس يحطرونه برأى أسئلته في كل شأن من كل جهة، فيودع عليهم من فوره بغير أدنى تلكو. كلامه سهل يفهمه السواد الأعظم، ويعبر عن مقصوده بعيداً عن التشوش أو التشويش في إيجاز صاف وسيل. وحين يتكلم برأى مستوى الملاحظين لكي يفهمهم، من عالم وجاهل، وذكي وعسي، وقليل خبرة وخير، وشاب وكهل، ورجل وامرأة، هيئت الاطمئنان في قلوبهم.

وإن أقواله وأخطئه كثيرة، حيث حاض في شؤون مختلفة، وحل موضوعات متنوعة، لكنه لم يائس الحقيقة والواقع في أي من أقواله وأفكاره، فلم يستطيع أحد أن يلحظ على بيانته وأقواله ما يخالف





فَالْعَصَا مُعْجَزَةٌ لَا يَسْتَقِيمُ،

فَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ ظُلُّ الْإِنْسَانِ مُعْجَزُ الْفَنَنِ وَمُشْرِفُ الْقَلْبِ ...

000



♦ أ. د. أحمد العادي ♦

ع

عانت البشرية كثيرا -ولا تزال- في مجال العلوم العلمية والعملية في المجالات الاجتماعية. ولذلك نرصد في مختلف حقبة تاريخ البشرية المعروف، كثيرا من التخطيطات وأصرب الحرص في المجالات التربوية والاجتماعية والإنسانية بسبب غياب هذا الوعي الأسس. ونأق الأهمية البالغة للوحدة القياسية الثالثة على حالة السواء، نعلم البشرية كثيرا -ولا تزال- في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية من جراء عدم الاستيعاب معاًم وسحات الإنسان السوي والمجتمع السوي، اللذين ينبغي أن يتسكلا الوحدة القياسية التي يجب أن تُنقش قطرها بالمناهج والراعي التربوية، وكلتا مختلف أنواع الكمب



بلاد الرافدين وكسلا في الحضارة الرومانية من إقامة الثعب والتمثيل لأشخاص عتارين يرفعون إلى مصاف الأبطال ليكونوا مثلاً تربوية يعاد إنتاجها، غير أن ضعف اللوحات الإدراكية والأكليات التذكيرية لم يكن يمكن من الرسم العلمي والوظيفي لمعا لم شخصياتهم وسمات لتسيامهم ومراحل مسارهم، مما كان يؤدي في كثير من الحالات إلى الانحسار في التقديس.

ويمكن رصد الظاهرة نفسها في كتب "الباتوك" والأبوكريف اليهودية التي نشأت بعضها النصرانية. وقد استمر هذا الخط في الحضارة العربية المعاصرة إذ يلتزم استمرار البحث عن الأبطال لإرسائهم فادج تختدي وصف سمات شخصياتهم الأساسية في المناهج التربوية. غير أن هذا النهج كذلك لم يخلع ليعاب الاستمرار حقيقة الإنسان السوي ودوره الكروي إلا نتائج حوثية.

تقديس أم حرمان من غرات النبوة؟

ساهم اعتقاد طوائف كثيرة من النصارى بأن المسيح ابن الله (١) في حرمانهم الكلي أو الجزئي من التأسي بني الله عيسى عليه السلام إذ كيف يتأسي من هو ابن الله؟ فكان هذا الاعتقاد متيحاً لأمش غير قليل من راحة الضمير -ولو في حالة المخالفة لتعاليم المسيح عليه السلام- عند إسان حضارة "Christendom" على حد تعبير "مارغال هودسون" لأن ذلك ابن الله، وإذا أخطأ الإنسان العادي في اتباع جوابات من تعليماته فلا حرج (٢) الأمر الذي حاول القديس "بيلديكت" استدراكه في قانونه التربوي المشهور "Code de St Benedict"، غير أنه لصرامته الشديدة كان غير ذي قابلية للشحق خارج بعض الأذرة للمحدودة جداً.

ويمكن رصد القطائع نفسها بين النبي والأنباع -وإن بشكل مغاير- في ذنابات أخرى بسبب رفع النبي فوق مصاف البشر؛ بل وربما لحاقه في بعض الأحيان بمصاف الآلهة؛ مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزَبْنَا عَنْ اللَّهِ وَفَالَتِ النِّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ الْفَلْجِ﴾ (٣٠٤).

الإسلام وردم القوة بين الناسي والتأسي به

حين نبهت إشكال التأسي في القرآن المحيد وفي السنة النبوية المطهرة نجد نَحوروا حول المحاور الكبرى الآتية:

١- النبي بشر عِدَّة مثل البشر، غير أنه اصطفي يعلم الله يوحي إليه

ونجد ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿قُلْ

من كرت التعرف على حالات الاختلال والانحراف لا يمكن بدونها، كما لا يمكن بدونها معالجة هذه الاختلالات والانحرافات. وهذه حقيقة ماثلة في مختلف مجالات العلوم المادية والإنسانية، غير أنها أجلي وأظهر في العلوم المادية البحتة منها في العلوم الإنسانية. ولتأخذ مثلاً على ذلك علم الطب. فهذا العلم يتفصل حول محاور ثلاثة:

١- العلم بالجسم وأعضائه في حالة السواء، والتعرف عليه عمولاً وعلى وطائفة، ثم التعرف على أعضائه تفصيلاً وعلى وظائفها، وهو علم الأناتوميا والفيسيولوجيا.

٢- العلم بحالات الانحراف والقصور التي تطرأ على الجسم وعلى أعراضها وأوصافها وأسماؤها تفصيلاً، هو علم السيمبويولوجيا.

٣- العلم بكيفية رد حالات الانحراف إلى السواء مرة أخرى بالصيلة أو بالراحة، وهو علم الغارماكولوجيا وعلم الراحة. والعلماء الثاني والثالث يتفرعان عن العلم الأول، إذ لولا العلم بحالة السواء وضبطها لما أمكن الوقوف على حالات الانحراف ثم لما أمكن ردها إلى حالة السواء بعد ذلك مرة أخرى؛ إذ كيف يُردُّ الاختلال إلى السواء إذا لم يمكن التعرف عليه؟ وهو أمر غير وارد ما لم تكن حالة السواء الشاهدة معروفة تفصيل وتذيق بحيث يسهل تين التغيرات التي تطرأ عليها ذاتاً وأداءً. غير أن هذا -وكما سلف- ورغم وضوحه في العلوم البحتة الكونية فإنه ليس بالواضح نفسه في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يوطيات وأبطال

لقد حاولت البشرية في مختلف مواقعها عبر تاريخها المتد أن تمل إشكال الوحدة القياسية على الصعيد الاجتماعي من خلال إنتاج "يوطيات" حول طبيعة ومكونات المجتمع الفاضل والمثالية الفاضلة، وعلى الصعيد التربوي من خلال إنتاج مفهوم البطل.

أتمودحساً على المحاولات في الجانب الاجتماعي، جهود أفلاطون في "المدينة الفاضلة" وجهود القديس أغوستون في "مدينة الإله" وجهود الغارابي في "للمدينة الفاضلة" أيضاً. وكذا جهود كارل ماركس وبعده لينين وكذا تصورات كل من ستالين وهينر وموسوليني للمجتمع الفاضل؛ وهي يوطيات حرت لعدم مواجعتها لطبيعة الإنسان والكون على العالين وبالأ غير قليل.

وأتمودحساً على المحاولات في الجانب الفردي ما يوجد في الأعراف المصرية والإغريقية والهندية والصينية وفي حضارات



التعاقيل الحائلة دون هذا الإخبار الضخم (التأسي) الذي عليه يقوم تحصيل السعادات في البشائير بالتوكل على الله تعالى.

٣- النبي شاهد وشاهد مؤيد

الشي هو الوحدة القياسية الشاهدة التي تمثل حالة السواء في الحال الإنساني والتي بالنظر الواعي إليها يتم التعرف على الاختلالات التي في هذا المجال جمعا وإفرادا. ببلست تحصل إمكان العمل على ردها إلى حالة السواء، وتلك نعمة من الله جلّي؛ حتى إذا تمت إعادة الأمة من التي فإنها بدورها تصبح وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي يمكن التعرف عليها من خلال التعرف على الاختلالات في هذه الأصعدة ومن ثم يمكن هذا التعرف من العمل على ردها إلى حالة السواء^(١٢٩) وهذا هو ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَاجْهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَمِيَكُمْ بِرَأْيِهِمْ هُوَ مَسَآكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَهِيَ هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (فتح: ٧٨). وفي قوله ﷺ: ﴿وَكَلَّلْتُكُمْ جَعَلْتُكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (نور: ١٤٣).

وحق يكون التي بعد اصطفاها هذه الوظيفة التكوينية الخطيرة قادراً على الاضطلاع ها، يكون إتمام الله بالتأييد. قال تعالى في معرض الكلام عن الرسل عامة ومن اتبعهم من المؤمنين: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۖ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَفُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (البقرة: ٢١-٢٢).

وقال ﷺ عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَلَدِ إِنَّكَ إِذْ أَدْنَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (نور: ١١٠). وقال تعالى عن نبي الحنم ﷺ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ جَنَابًا فَظَنَّكَ نَارُكَ مِنْهُ أَصْنَانُ كَاغِبَاتٍ﴾ (الأنعام: ٦٧).

كما أن النبي هذا القصد -قصد أن تمثل فيه الوحدة القياسية الشاهدة- يصنع ظاهراً وباطناً على عين الله. وقال ﷺ عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ تَوَلَّيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى عَيْنِي﴾

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرْخِي إِلَيَّ أَنَا بِهَيْبَتِكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُفْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠). وقوله ﷺ: ﴿فَقُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الاسراء: ٩٣). وقوله عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (المراد: ٦).

وتبيننا هذه الحقيقة قال ﷺ: "أجلس كما يجلس العبد وأكل كما يأكل العبد، فإذا أنا عبد"^(١٣٠). وقال عليه الصلاة والسلام: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَبِيضَ"^(١٣١). وقال ﷺ: "متنا لأسباب إتيان الفجوات السابقة"^(١٣٢) بين الأنبياء والمؤمنين: "لا تطروني كما أطرت النصارى للمسيح ابن مريم"^(١٣٣).

وعموماً فإننا نجد في القرآن المجيد التأكيد على عودية الأنبياء عليهم السلام، سدا لكل فريضة قد تؤدي إلى إحداث هوة بين النبي والمؤمنين. فقال ﷺ: حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿فَأُشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قال إني عبد الله آتاني الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مر: ٢٩-٣٠). وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْفَعْلُ إِنَّهُ آتُوا رَبَّهُمْ﴾ (س: ٣٠). وقال عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا ذَاكَ الرَّعْنُ أَتَى مَسِيحُ الشَّيْطَانِ يُضِلُّ وَعَدْلًا﴾ (ص: ٤١).

٢- التأسي في القرآن المجيد يتم بالنظر إلى النبي المثال، فيالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال

قال تعالى في معرض الكلام عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَعَنِ ابْنِهِ الْخَلَصِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أَنُورٌ خَاسِعَةٌ لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا أَنَّ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (النسبة: ٦١). وقال ﷺ عن خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوةٌ خَاسِعَةٌ لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا أَنَّ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الاعراب: ٢١).

فالأنبياء إذن مثال هاد لنا قام في قلوبهم الشوق والتوق إلى ما عند الله ﷻ وعلى هذا الشوق وذاك التوق بالذكر الكثير له ﷺ والأنبياء هم الوحدة القياسية المرجع التي تمثل حالة السواء الشاهدة التي ينبغي أن يرحم من خلالها الحال لكي يتم العمل العالم المهتدي على نقله إليها. فهو إذن صوفي وتوفي وذكر كثير وهي شاهد وعمل دؤوب عالم ففضل من الله كبير مع وجوب الانتباه إلى

في أذهان المشتغلين به، ما لا ينتج إلا بطول الممارسة للبحث في مجال معين، والتعاطي مع المشاكل المنهجية التي فيه.

هذه التربة مثلاً، لن يكون أفضل على مساهمة آثار النبوة في هذا المجال من التزويين، لمكابدتهم له ولعاباتهم المنهجية داخله، معاناة كغشي الشوق والثوق وكذا الاستعداد لوجدان الحلول. وهل أفضل على استغلال البئر من أعماق البحار ممن يعرفه ويعرف قيمته؟!

وأحلى مثال على ذلك في مجال التربية محاولة الجواب عن السؤال الموقر الذي مفاده: من هو الإنسان الأمثل الذي يسعى أن يكون القبط الجاد للسامح والبرامح التروية بحيث تتعنى الوصول بالخاصة لتعليم التربية إلى أفقه، دوماً حثية من آثاره المضادة؟ وإد إن البشرية اليوم تعيش في حيرة هذا الخصوص من حراء توههم عدم التوافق على مثال حي حل من القافض، فإن أهل الاختصاص -سعدوى الوظيفية- يحاولون النظر في ما هو متعارف على كونه مشروعا مجتمعا لاستخلاص مختلف الاحتمالات في الموارد البشرية ثم لتصوير تسرع هذه الاحتمالات وتوفرها أهدافا تربوية تسك في البرامج التربوية وتندرج منهاج تربوية وتُصمَّم لتطبيقها.

وإذا علم أن المشاريع المجتمعية تنسجها نتائج التناقض بين موازين القوى في المجتمعات فإن الأمر يصبح أكثر تركيا وتعقيدا. فالأقوى والأكثر نفادا هم الذين يصوغون معالم المشروع المجتمعي ويشكلون العقول ليقولوه، وذلك عن طريق حماسي: الإنستيم والأكادم والاقتصاد والسلطة والإعلام.

فالإنستيم الذي يجمع بين الرؤية للعالم "الكوسمولوجيا" والأطر المرجعية/البرادكلمات (Paradigma) والبطوبيا والمناهجية. إما أن يكون وليد -إطلاق استنباطي من الوحي- أو توليد فلسفي مقولاني نسبي حر، أو إملاء متحكم "تومونكلاتورا" يفرض ما يريد مثل ما نقل عن قرعوني في كتاب الله **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْبِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾** (عابر: ٢٩). وحلي أن النمط الأخير هو السائد في عالمنا بالظلف الطرق وأدقها أحيانا، وبأصفقها وأعفها أحيانا أخرى.

فما أن الأكادم يأتي في الدرجة الثانية ضمن النمط الإعلامي التحكمي بخلاف النمط الاستنباطي من الوعي والنمط الفلسفي للمولاني النسبي الحر حيث يكون الإنستيم متفرعا عن الأكادم، بما أن الحال كذلك في النمط الإعلامي التحكمي، فإن الفرد المتحكم أو الجماعة المتحركة تكون هي المنشئة للإنستيم

(طه: ٣٩). وقال تعالى: **﴿وَأَسْتَغْفِرُكَ لِغَفْسِي﴾** (طه: ٤١). وقال **﴿عَنْ حَامِ السَّيِّئِ: أَلَمْ تَسْأَلْكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْتَ عَنكَ وَزُرْكَ﴾** الذي أنقصر طهره **﴿وَرَفَعْتَ لَكَ ذِكْرَكَ﴾** (طه: ٤٢). وقال **﴿فِي هَذَا الْمَعْنَى: أَتَيْتُ رِي فَاحْسَنَ تَأْذِيهِ﴾**. فكانت النتيجة في حقه **﴿فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْكَتْ لَعَلِّي خُلِّي عَظِيمٌ﴾** (طه: ٤٤). ومن أجل ذلك كان اتباعه والتأسي به **﴿فِي هُوَ الْمَرْفَاقَ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَعِيتِهِ﴾**. وقال عر من قائل: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** (آل عمران: ٣١).

نحو استئناف التأسيس المنهجي لعلم التعامل مع آثار النبوة
إن مكونات علم التأسي منتشرة بفضل الله في سجلات السنة النبوية المطهرة وجميع التفسير ومصنفات علم الفريكية والتصوف وكذا في كتب الفقه والأصول ولا تحتاج إلا إلى الجمع والمنهجية. فالآيات المباركة في كتاب الله الكريم قد ألفت الأنوار حول الصفات المحورية للأنبياء والرسل وفي مقدمتهم إمامهم وأحائتهم سيدنا محمد **﴿ص﴾**. كما أن المصنفات في الشعائل النبوية وفي دلائل النبوة قد ألفت الأصواء على شهادته **﴿ص﴾** وعلى هديه عليه الصلاة والسلام. كذلك، فكب السيرة عامة قد حاولت رصد حياته الشريفة **﴿ص﴾** بنفاقتها وتفاصيلها، فحصلت عندنا بحمد الله بجامع ما تحتاج إلا إلى التثمين والتوظيف.

ويمكن تبين للمعالم الكبرى لعلم التأسي على المستويين الفردي والجماعي كما يأتي:

١- الوحدة القياسية على المستوى الفردي

لقد ساد بين المسلمين في الأزمنة الأخيرة من تاريخهم، على خلاف ما كان عليه الأمر في عهد الصحابة الكرام **﴿ص﴾**، إشغال الشركي مع آثار ودلائل النبوة ومخائل النبي **﴿ص﴾** وسيرته العطرة عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك خير كثير في ذاته، غير أنه لو شُبع بالوظيفية لكان الأخير أهم وأتم، ولتصد بالوظيفية هنا أن يتم طرح الأسئلة العملية على آثار النبوة من أجل تبين أوجه الشهادة النبوية في مجال مخصوص، وتتمسك منهجية الرد إلى الوحدة القياسية..

وهي أسئلة لا يمكن طرحها بطريقة سليمة إلا من لدن العالمين بالمجال قيد التسلسل، إذ العلم بالمجال هو الذي يمكن من تلمس مواطن الهدى النبوية فيه لتأهيل الناجم عن استنباط التصاريس الشرعية والمركبات المفاهيمية والأنساق القياسية ذات الصلة بالمجال

والفارقة له على الآخرين. وهذا لا يحلّي بحال ساحة المخاضين من المسؤولية. يقول ﷺ: ﴿وَبَادَى فَرْقُونُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِثْرَ وَهَذِهِ الْأَهْجَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ثم أتى خبر من هذا الذي هو مهيمن ولا يكاد يُبْصِرُ ﴿فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ حَاءٌ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْرِئُونَ﴾ واستنصف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿طبرقي: ٥١-٥٢﴾.

وبسّنى دور الملوك الاقتصادي السدي يكون عموماً بأيدي فارسي اليوموكلا تورات بتصير الأكادم في وضع التابع حتى في عين كيونته، إذ التمويل للحامعات ومراكز البحث والأبحاث التي تُجرى فيها يصبح مشروطاً بالنسر في سياق الإيسيم السائد، رغم أن الحق مع موسى ﷺ!

فقع الأكادم في التطور لأطامط التوجهات والسلطة المادية والمعنوية والديانات والفرائض والوسائل المُكَمَّنة من حماية وتبريل الإيسيمات المسالدة فهي حماية متبادلة بين السلطة والإيسيم المسخر للأكادم.

ليرقد الأكادم بعد ذلك الإعلام بحمولاته الداعمة الداعية إذ لن يُسبح الأكادم في هذه الحال إلا التوجهات والرؤى المتفرعة عن الإيسيم الحاكم.

فلهذه حلقة مفرغة محكمة قادت وتقود العالم نحو أزمات معيقة. وآية إفرانها وإحكامها أن المشاريع المتحمية التي من المفروض أن تستهدي بها علوم التربة في وضع الرامح والمناهج التربوية لن تحج سوى هذا الهدي التحكمي المفرع للإنسان من إسانيته.

ومن هنا فإنه لا سبيل للخروج من هذه الأزمة إلا بالتعرف على الإنسان الشاهد -الوحدة القياسية- الذي يمثل حالة السواء والذي من خلال التعرف على بياته النفسي والتحصي والقصدي يمكن الشروع في العمل على إنتاج العلوم الوظيفية والمناهج العملية المُكَمَّنة من ردة الاختلالات إلى حالة السواء.

وهذا الدور المحوري الخطير لوظيفية البيرة ووظيفة الذكر الذي تأتي به من محل الرشد في التعامل معها والتأسي بها.

فالتعرف على حالة السواء -وكما تقدم- يمكن من تجريد المسأل التفصيلي الذي ينبغي أن يتسّر -من خلال الرامح والمناهج- لتسير بالثريين نحوه بغير عرج ولا أمت. وهذا مضمار -في العلوم التربوية- للمحت والإبداع فسبح حبيب.

ودالما في علاقة بالوحدة القياسية على المستوى الفردي فإن علم النفس وعلم النفس السلوكي وعلم التحليل النفسي كلها

علوم تعاني الأمرين لغياب العلم بحماية حالة السواء، ولا شك أن أهل هذه المجالات إن أعملوا عقولهم وجدانهم لتجديدها من آثار البيرة، فسوف يتلون إشكالات البيرة ومكثفة.

إن إتمام الله بأن تولى ﷺ في مرحلة الختم بياته العلية حفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَيِّتَ وَنُنْزِلُ السَّمَاءَ مَاءً فَنُخْرِجُ مِنْهَا نَبَاتًا﴾ (نمل: ١٩)، فحفظت بذلك آثار البيرة للبيرة، واستمر إمكان التعرف على النبي الشاهد وعلى حالة السواء من خلاله. إن هذه البيرة الخلق إن شكرت بحسن التوظيف والتتمير، ولم تُكفر بالإنكار والاستهتار لمن شأنها أن تهدي العالمين إلى مستغلات أكثر إضرافاً.

٢- الوحدة القياسية على المستوى الجماعي

لقد عانت البشرية كثيراً على الصعيد الاجتماعي من آثار الجهود الحارصة لتبيين معالم وسمات العبران البشري الأمثل، كما عانت غير تاريخها من إلامات وتكمكات المستبين أفراداً وجماعات. وقد كانت الذعائر والتكاليف بأعضاً، إذ كم قُدم ويقدم من الأبرياء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً خطياً لهذه المشاريع البيوطية، لمُبين بعد حين أنها لم تكن سوى سراب عباب، ولات حين مناص، وما الحالة السوهانية مآلاً بعيداً.

وما رحمة من الله تعالى فقد جعل ﷺ الوحدة القياسية على المستوى الاجتماعي تتمثل في المجتمع النبوي حيث تمكن النبي الخاتم ﷺ من جعله هداية الله وتوفيقه بُنْتُ كله بالهداية التي هي أقوم قضاء وعمران وإسنان ووظائف ومراكز وعلائق.

وقد كان البدء بأن تم تغيير اسم مهاجر الرسول الخاتم ﷺ من طيبة ويثر إلى المدينة -بألف ولام التعريف- ليفهم أن العبران الشاهد كان هو ذلك.

ولئن تكلم الفلاسفة عن المذبة الفاضلة وناقوا إلى التعرف على الوحدة القياسية بهذا الخصوص، فإن البيرة -أمر الله وفضله- قد أشادها واقعا حيا نابضا خلقت معالمة المركزية رغم كل التفریط والتفويض الذي يَبدُر مثله عن البشر.

فالنبي الخاتم ﷺ قد زرع آيات الوحي وعلاماته وبصائره في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، فَأَنْعَقَتْ مِنْهَا إلى واقعهم لتكون هاديات حادثة للمحنة البيضاء التي أليها كهارها ولا يبرع عنها إلا هانك.

إن في كتاب الله كما في سنة سيدنا رسول الله ﷺ البينات الوافرة على الشُطُط والمراكز والأدوار والتنبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تُشخص في المجتمع الشاهد، في حالة السراء وفي حالة القضاء، في حالة الشدة



وفي حالة الرعاة، في حالة السلم وفي حالة الحروب وكذا الحرب والأكوار^(١)، مما ليس ينتظر إلا العقول المتمرسنة الخيرة لطرح الأسئلة للنهضة من أجل رفع صرح علم الناس على الصعيد الاجتماعي.

خاتمة

وحيثما اتسببه إلى بعض الأسس المهمة من أسس علم الناس وأكدها:

١- أن يعلم الناس حثيات السياق الزماني والعمراني الذي يوجد فيه، وحيثيات سياق الناس به ﷺ الزمانية والعمرانية والبيداغوجية^(٢).

٢- أن يعلم الناس الفروق الأتروبولوجية والثقافية والعرقية وغيرها بين السياقين حتى إذا سأل في أي مجال من المجالات، استمتع هذه الفروق ليكون التبريل سليماً، ولا يفتي ما يقتضيه هذا من جهد بحثي متهج.

٣- أن يستمتع الناس العلم بالمقاصد العامة للشريعة، رحمتها وحماها وضرتها حتى لا يفرط في الأصول لحساب الفروع أو يقدم ما من شأنه أن يؤخر أو العكس... وهذا داخل ضمن فقه المراتبات والتريجات. وقد قام علماء الأمة جراحهم الله خيرا بجهود وحيثية في هذه المقاصد.

٤- أن يستحضر الناس وجوب النظر في الآلات، واعتبارها حتى لا يكون حالاً فاسداً على نفسه ومحيطه من حيث يريد جلب المصالح، وكثيراً ما يحصل ذلك إذا أغفل البعد المستقبلي في التبريل.

٥- كما أن من أكد الشروط أيضاً وحرب المقاربة التكاملية التي لا تعمل جانباً من الجوانب أو قطعها، بل تحرص على حضورها ومراعاتها جميعاً بشكل مقتر متوازن.

وبلون مراعاة هذه الشروط فإنه لا يمكن تفعيل وطبيعة ودور الشهادة كما جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

بقيت الإشارة أخيراً إلى أن في ترثنا جهوداً مباركة وحيث استأنفنا في هذا الاتجاه لعلماء أفاضل هم يسبق حائزون تفضيلاً مستحقون من أمتهم تناءد الجيل، كأمثال القاضي عياض السبكي في "شفاة" والسبكي في "مواقفاته" و"اعتصامه" وابن القيم في "زاد المعاد" والصاخي في "سبل الهدى والرشاد" وشاه ولي الله الدهلوي في "الحجة البالغة" وبدیع الرومان سعيد النورسي

في "رسائل النور" وعبد الحلي الكنتلي في "الترتيب الإداري في الحكومة السوية" وغيرهم ممن وحب البناء على جهودهم وتتميرها. كل ذا دون فقدان الاستبصار بأنه رغم كل ما يمكن أن يبدل في مجال علم الناس، فإنه يبقى مجالاً متجدداً يتجدد الأمانة والأمكنة والأحوال والأعراف والعادات. وبرحم الله الإمام السبكي إذ سَمَّى سورة رسول الله ﷺ: "الروض الألف^(٣)".

والحمد لله رب العالمين. ■

^(١) الأبن العام للراثة للحمدة للعلماء - الغرب

المقاصد

^(٢) شعب الإيمان للنهلي، ١/٧٥.

^(٣) جمع الفوائد للنهلي، ٩/٤٢٠: أن ما جاء في الألف، ٣٠.

^(٤) قالوا مؤسسة واحدة شاملة لبطا وبستره والاحل منها تفهية التصديق ولفسما ما كان في السلس ليلس الساء في النهاية كاملا شاملا حذا ﴿وَلَا يَكُونُ لِقَاسُ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ يَدُّ الرَّسُولِ﴾ (فصل ١٦٥). ﴿وَأَنَّ الرَّسُولَ يَدُّ الْقَوْلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَلَقَدْ يَوْمُونَ كُلُّ آتَى يَدُّ وَتَلَاكِي وَتَكْتَبُ وَرَسُولُهُ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَدْ أَوْفَى سَبْقًا وَأَلْفًا غُرَّتْ رَتْنَا وَإِنَّكَ قَصِيرٌ﴾ (البقرة: ١٨٥).

^(٥) البحاري، أحداث الأنبياء ٤٨

^(٦) يلاحظ أن حالة السواء في كتاب الله ليس مقنوح أحد بين الاختيار للخصومات والسلاطات، وهو ما تروح بعون الله تفصيل القول فيه في بحث لاحق.

^(٧) فيض القدر للنسائي، ١/٢٢٤.

^(٨) وما أروع الصورة المشرفة التي عرضها كتاب الله لمجتمع المدينة الشاهد وهو بعد في طور التكوين في مثل قوله تعالى من سورة البقرة ﴿وَلَقَدْ مَوْجُودًا الْمَدِينَةَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَيَحْكُمَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا تَجِدُ فِي ضَلُوبِهِمْ حِلًّا مِمَّا أَوْفَرُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَا كَانَ بِهِمْ حَسَابَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَيْخَ لِقَابِهِ فَلْيُؤْكَ فَهُم مُقْتُلُونَ﴾ ولقد جازوا من بعدهم يقولون رَتْنَا أَخْبَرْنَا وَإِنْ خَالَاتِ الَّذِينَ سَبِقُوا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجِدُ فِي قُلُوبِهِمْ عِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَتْنَا بِكَ رُفُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٠٠). وفي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والفرقان والطلاق والمجادلة وغيرها عر هذا الصدد لا تنظر إلا المحلة المفجدة. ولعل فيه الإمام مالك من أسس الأسس ﷺ في هذه الحلقة بشكل عام كان وراء إقراره لأسس من أصول مذهبه المبارك، حيث جعل "عمل أهل المدينة" أسلا من أصول للتطبيق لا تقتض هذا التصحيح الشاهد من عاداته لي تكلف كل مخالفتها إلا عم الزمن. كما علم أهل المدينة أن أمر المؤمنين عشرين الخطاب ﷺ لشبه إلى أمة حفظ هذه الوحدة القياسية الاجتماعية في مرحلة التكوين حتى تكتب أركانها، كان قد عي المصالحه رضوان الله عليهم من معاداة المدينة المنورة حتى سبقت البناء وتلعبت الشهادته فلم يسكنوا من معاداة إلا بعد وفاته ﷺ.

^(٩) لأنه ﷺ جاء معلما للناس ﴿فَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَتَّى مِنْكُمْ شَتَّى عِيتَكُمْ آيَاتًا وَبُرْهَانًا وَتَعْلِيمًا﴾ (البقرة: ١٢٩). فوجب أن يؤخذ هذا الجانب التعليمي أيضا بين الاعتراف بين الناس.

^(١٠) أي الروض الذي لم يدخله.

كن نقاد نفسك وخميسم أخطائك كأنك مدع عام،
وابحث عن تبرير لأخطاء غيرك كأنك مجام...

الليل والنهار في القرآن الكريم



﴿آء. وٱلنهار﴾

والليل والنهار آياتان عظيمتان من آيات الله في الخلق تشهدان على دقة بناء الكون، وعلى انظام حركة الأرض حول محورها المائل غير محدد، وبذقة فائقة في مدار محدد حول الشمس، وما يستتبع ذلك من تحديد لسنة الأرض، وتبادل للفصول المتعاقبة، ومرور للشهور والأسابيع والأيام، وتعاقب الليل والنهار على نصفي الأرض.

التبادل المنتظم بين الليل والنهار

إن التبادل المنتظم بين الليل والنهار على نصفي الكرة الأرضية هو من الضرورات الملزمة للحياة الأرضية، ولاستمرارية وجودها بصورها المختلفة حسب برت الله تعالى الأرض ومن عليها. فهذا التبادل بين الظلمة والنور يتم التحكم في توزيع ما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية، وبالتالي يعين

حساء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنين وتسعين مرة، وفي المقابل جاء ذكر النهار في القرآن الكريم سبعة وخمسين مرة. كما وردت ألفاظ "الصبح" و"الإصباح"، و"الليل"، و"الكرة"، و"مستنفذاً" يدلون النهار في آيات أخرى عديدة، وجاءت كلمة "يوم" أحياناً بمعنى النهار في عدد من آيات القرآن الكريم.

وفي هذه الآيات من علينا ربنا تبارك وتعالى بتبادل الليل والنهار ويعتبرها من آياته الكثيرة، لأن في ذلك استقامة للحياة على الأرض، وحواء للإنسان على تحديد الزمن، والتأريج للأحداث المتتالية. وبدون هذا تبادل بين الليل والنهار المبرر توقف الحياة على الأرض، وبلاشي إحساس الإنسان بمرور الزمن، وتوقف قدرته على متابعة الأحداث والتأريج لها.

ج



تشير إلى تبادل الليل والنهار في صياغة معجزة. ومن جوانب ذلك الإعجاز إشارتها إلى أعداد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت تنزّل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك مما يبرهن بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة الحقة والرسالة الخاتمة.

المشاهد العلمية المستفادة من تبادل الليل والنهار

١- التأكيد على كروية الأرض: فإن تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض وتعاقدهما وإصلاح كل منهما في الآخر، واختلافهما وتقليبهما، وإدبار أحدهما وسفر الآخر، وإغشاء نور النهار بحلّة الليل، وتبعية حلّة الليل بنور النهار، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، كل ذلك إشارات ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض. فلو لم تكن الأرض كرة ما أمكن حدوث شيء من ذلك أبداً، وأسطه تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض.

هذه الحقيقة العلمية جاء بها القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين في وقت ساد فيه الاعتقاد باستواء الأرض لذي كل الناس، على الرغم من إثبات عدد من قدماء المفكرين غير ذلك.

وتزول الآيات القرآنية العديدة هذه الحقيقة الكونية الثابتة في الجزيرة العربية التي كانت في ذلك الوقت القديم بيئة بدوية بسيطة ليس لها أدنى حظ من المعرفة العلمية ومناهجها ولا بالكون ومكوناته، لما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، والذي هو أدرى بصنعه من كل من هم سواه، وأن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ كان موصولاً بالوحى، وعلمنا من قبل خالق السموات والأرض.

٢- التأكيد على دوران الأرض حول محورها أمام الشمس: فلو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما تداخل الليل والنهار، وهذا الدوران عبرت عنه الآيات القرآنية في أكثر من عشرين آية صريحة بتعبيرات ضمنية رقيقة، ولكنها مصاغة بصياغة علمية دقيقة، تبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم يبلغه العلم الحديث.

وقد أتوت هذه الآيات مؤكدة حقيقة دوران الأرض حول

على التحكم في درجات الحرارة والرطوبة وكميات الضوء في مختلف البيئات الأرضية؛ كما يعين على التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية من مثل الطقس والأرض في كل من الإنسان والحيوان، وعمليات التمثيل الضوئي في النباتات؛ ويتم ضبط التركيب الكيميائي للغلافين الغازي والمائي المحيطين بالأرض، وضبط الكثير من دورات التماسط الأرضي من مثل دورة الماء بين الأرض والطبقات الدنيا من غلافها الغازي، وحركات الرياح والسحاب في هذا الغلاف، وتوزيع نزول المطر منه (بتقدير من الله)؛ كما تنظم دورة تعرية الصخور بتفتيتها، ونقل هذا الفتات أو إبقائه في مكانه من أجل تكوين التربة أو الرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من خيرات أرضية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن في اختلاف الليل المظلم والنهار المنير تقسيما لليوم الأرضي إلى فترتين للحركة والعمل والنشاط، وفرة للراحة والاستحمام والسكون، فالإنسان يحتاج إلى السكينة بالليل كي يتجدد فيه إلى شيء من الراحة النفسية بالعبادة والتفكير، والراحة البدنية بالاسترخاء والنوم والإغفاء حتى يستعيد كلالاً من نشاطه البدني والمذهني، ويستجمع قواه فينتهي للعمل بالنهار التالي وما ينظمه ذلك من القيام بواجبات الاستئصال في الأرض. وقد ثبت علمياً أن أفضل النوم يكون بالليل، وأقله فائدة هو نوم النهار (فيما عدا فترة القيلولة). كما ثبت أن كثرة النوم بالنهار تؤثر في نشاط الدورة الدموية في جسم الإنسان، وتهدده بالتهبس في العنق، وتؤدي إلى تراكم الدهون وزيادة الوزن، وإلى العديد من صور التوتر العصبي والقلق النفسي.

وربما كان من مبررات التوجيه الرباني باليوم بالليل والنشاط بالنهار أن طبقت الحماية التي أوجدها ربنا تبارك وتعالى في الغلاف الغازي للأرض، ومن أهمها "الطقن للتأني" وما بها من "أحرمة الإزعاج" تستمد بالنهار فترداً قرارها على حماية الحياة الأرضية مما يسمح للإنسان بالحركة والنشاط دون مخاطر. وهذه الطقن تكشف انكساراً ملحوظاً بالليل، مما يقلل من قدراته على الحماية؛ فيصبح الإنسان بالركون إلى النوم والراحة حماية له من تلك المخاطر. وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (الباق: ١٠-١١). قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (نور: ٦٧).

من هنا كان التدبر في ظاهرة تعاقب الليل والنهار دعوة إلى الخلق كافة للإيمان بالله. ومن هنا أيضاً جاءت الآيات التي

محورها في وقت ساد فيه الاعتقاد بثبات الأرض ورسوخها، بمعنى عدم دورانها أو تحركها، وهو أمر معبر للغاية.

٣- التأكيد على أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في المراحل الأولى لخلق الكون كانت أعلى من سرعتها الحالية، وهذه الحقيقة لا يتوصل العلم للكسب من إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وقد سبقها القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرناً، وذلك بالإشارة إلى هذه الحقيقة في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَغْلِبُهُ خَلْقُ النَّهَارِ وَالْقَمَرُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُسْتَخَرَاتُ بَأَمْرِهِ لَا لَهُ خَلْقٌ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

وإغشاء النهار بالليل جاء في القرآن الكريم أربع مرات (الأعراف: ٥٤، الرعد: ١٠، النور: ١٠، النحل: ١١). والمرأة الوحيدة التي جاءت فيها الصفة «يَغْلِبُهُ خَلْقُ النَّهَارِ» أي سرعها، هي هذه الآية الرابعة والخمسون من سورة الأعراف، لأنها تتحدث عن بداية خلق السماوات والأرض، وهي حقيقة مدونة في هياكل الحيوانات وأحشاش البساتين بدقة بالغة، ولم يكن لأحد من الخلق إلمام بأية فكرة عنها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين حين اكتشف العلماء أن تداخل الليل والنهار كان يتم في العقود الجيولوجية القليلة بسرعة فائقة جعلت من عدد الأيام في السنة عند بدء الخلق أكثر من ألفي يوم، وجعلت من طول الليل والنهار معاً أقل من أربع ساعات. وكان إبطاء سرعة دوران الأرض حول محورها بمعدل جزء من ثمانية في كل قرن من الزمان آية من آيات الله في إعداد الأرض لاستقبال الحياة، لأن صور الحياة -وفي مقدمتها الإنسان- ما كان ممكناً أن تتلام مع هذه السرعات الفائقة لتدور الأرض، وكذلك مع قصر أو طول كل من الليل والنهار.

٤- التأكيد على سح الأرض في مدارها حول الشمس: يعم القرآن الكريم عن الأرض في عدد من آياته بالليل والنهار كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣)، وفي قوله عز من قائل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ تُسْبِقُ النَّهَارَ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (س: ٤٠).

وذلك لأن كلا من الليل والنهار عبارة عن طرف زمان وليس جسماً مادياً، ولا بد للزمان من مكان يظهر فيه. والمكان في هذه الحالة هو كوكب الأرض الذي يقسم الليل نصفه،

ونهار النصف الآخر في حركة دائمة وتبادل مستمر. ولو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تدور حول محورها أمام الشمس لما تبادل سطحها الليل والنهار في تعاقب مستمر. ولولا جري الأرض في مدارها حول الشمس ما تغيرت اليوم. ولو لم تكن الأرض مائلة محور دورانها على دائرة السروج بزاوية مقدارها ٦٦،٥ درجة تقريباً ما تبادلت الفصول. ولولا علم الله بهل الناس تلك الحقائق في الأزمنة السابقة لأثرل الحقيقة الكونية بلغة صادقة فاطعة، ولكن لكي لا يفزع الخلق في وقت تسرل القرآن الكريم أشار إلى جري الأرض في مدارها المحدد لها حول الشمس بسبح كل من الليل والنهار. والسبح لا يكون إلا للأحسان المادية في وسط أقل كثافة منها. فالسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم المادي بحركة دائمة فيه من مثل حركات كل من الأرض والقمر والشمس وغيرها من أجرام السماء، كل في مداره وحول جرم أكبر منه. ويؤكد هذا الاستقناح صيغة الجمع "كل في فلك يسبحون" التي جاءت في الآيتين، لأنه لو كان المقصود بالسبح الشمس والقمر فحسب، لجاء التعبير بالثنية و"كلهما يسبحان".

٥- التأكيد على الرقة الشسيلة لطقة النهار في الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس: وهي حقيقة لا يدركها الإنسان إلا بعد زيادة القضاء، في منتصف الخمسينات وأوائل الستينات من القرن العشرين. وقد سبق القرآن الكريم هذا الكشف العلمي بأربعة عشر قرناً وذلك في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ﴾ (س: ٣٧). وهذه الآية الكريمة تؤكد أن الأصل في الكون الظلام، وأن طبقة النهار في الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس، والتي تتحرك باستمرار لتحل محل ظلام الليل بإضراق الصبح، هي طبقة بالغة الرقة لا يكاد يمكنها أن يتعدى ٢٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر. وإذا نسبنا هذا السمل إلى المسافة بين الأرض والشمس، وهي مقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون

كلمة، كانت النسبة واحداً إلى سبعمئة ألف وخمسين ألفاً تقريباً. وإذا نسبنا إلى نصف قطر الجزء المدرك من الكون، والمقدر بأكثر من اثني عشر بليون (ألف مليون) سنة ضوئية اختفت هذه النسبة تماماً أو كادت. ومن هنا تتضح ضائلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، كما يتضح عدم استقرارها لانتفاها باستمرار من نقطة إلى أخرى على سطح الأرض مع دورانها حول محورها أمام الشمس؛ ويتضح كذلك أن تلك الطبقة الرقيقة من نور النهار تحجب عنا ظلام الكون الخارجي، لأن الذين تعدوا طبقة النهار



تكتشف إلا في سنة ١٩٣٦. والأشعة الكونية تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين فتؤدي إلى تأين الغلاف الغازي للأرض، ومن ثم إلى توهجه.

ومن الثابت علمياً أن لطقى الحماية المتعددة في الغلاف الغازي للأرض من مثل نطاق الأوزون، ونطق الثأين، وأحزمة الإشعاع، والنطاق المغناطيسي للأرض لم تكن من موحودة في بدء خلق الأرض. ولذلك فقد كانت الأشعة الكونية تصل إلى المستويات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض فتؤدي إلى توهجه ليلا حول كافة الأرض، وبعد تكون نطق الحماية المختلفة أخذت هذه الظاهرة في التضاؤل التدريجي حتى اختفت، فيما عدا مناطق محدودة حول القطبين، بقي شاهدة على أن ليل الأرض في المراحل الأولى من خلقها كان يضاء بوهج لا يقل في شدته عن نور القمر الصادق.

فسبحان الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرناً قوله الحق على لسان نبيه الخاتم: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَتَحْسَبُوا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً فَتَنْتَبَهُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ وَالْجِبَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضْلاً تَفَصِيلًا﴾ (الإسراء: ١٢).

هذه القسواء العلمية المستفاد من تبادل الليل والنهار بينه بتأكيد كروية الأرض، ثم دورها حول محورها، وتناطح هذا الدوران مع الزمن، وحرها في مدارها حول المحدد حول الشمس، والرقعة الضالدة لطقى النهار، والذقة الفالقة لفساب الزمن بواسطة تناوع كل من الليل والنهار والشمس والقمر، وأن ليل الأرض كان يضاء في بدء الخلق بوهج لا يقل في شدته عن نور القمر الصادق، وأن من بقايا هذا الوهج القديم ظاهرة الفجر القطبي...

هذه القسواء م يصل الإنسان إلى إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. وورودها في كتاب الله الذي أنزل على نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها ساحقة من الأميين، ومن قبل أربعة عشر قرناً لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخاتم والخالق، وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحى، ومعلمنا من قبل خلق السماوات والأرض، ولذلك وصفه ربه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (الشم: ٥-٣) ■

من رواد الفضاء وأوا الشمس في منتصف النهار قرصاً أوفق في صفحة سوداء. وهذه المعلومات التي اكتشفت منذ أقل من نصف قرن تنضح ووعة تنبيه القرآن الكريم السلاخ نور النهار عن ظلمة كل من الليل والكون يسلمح حلد الديحة الرقيق عن كامل بدنها. وهذا يؤكد أن الظلمة هي الأصل في هذا الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرة ثروانية عارضة وبقية جداء، لا تظهر إلا في الطيقات الدنيا من الغلاف الغازي في تصفه للمواجه للشمس؛ وبواسطة دوران الأرض حول محورها أمام ذلك النجم يسلمح النهار تدريجياً أمام ظلمة ليل الأرض والتي لتلغي ظلمة السماء.

٦- التأكيد على ذقة الحساب الزمني بواسطة كل من الليل والنهار والشمس والقمر: من المعروف أن السنة المجرية هي سنة شمسية أقمية، لأن هذه السنة لتحدها دورة الأرض حول الشمس دورة كاملة تنعها في ٣٦٥,٢٥ يوماً تقريباً، وأن هذه السنة تقسم إلى اثني عشر شهراً بواسطة دوران القمر حول الأرض؛ كما يقسم الشهر إلى أسابيع وأيام وليال بنفس الواسطة. وقد تقسم الشهور بواسطة الروح التي تمر بها الأرض في أثناء جريها في مدارها حول الشمس، كما تترك الأيام يتبادل كل من الليل والنهار، ويقسم النهار إلى وحدات أصغر بواسطة المرولة الشمسية؛ ومن هنا كان القسم القرآني بالليل والنهار والشمس والقمر في خمس آيات (الأحزاب: ١٩٦؛ إبراهيم: ٣٢٢؛ النمل: ١٢٢؛ الأنا: ٣٣؛ فصلت: ٣٣).

٧- الإشارة إلى أن ليل الأرض كان في بدء الخلق يناد بعدد من الظواهر الكونية: وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَتَحْسَبُوا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً فَتَنْتَبَهُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ وَالْجِبَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضْلاً تَفَصِيلًا﴾ (الإسراء: ١٢).

ويستف من هذه الآية ظاهرة الضعق القطبي وأطيافه والتي تعرف أيضاً باسم ظاهرة الأنوار القطبية أو باسم ظاهرة فجر الليل القطبي، وهي ظاهرة ثروانية تسرى بالليل في سماء المناطق القطبية وحول القطبية، وتتكون نتيجة لارتظام الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فمسحة الجزء المذكور من الكون على هيئة الجسيمات الأولية للمادة بالغلاف الغازي للأرض، مما يؤدي إلى تأيئه وإصدار أشعة كونية ثانوية. ونتيجة لذلك تصادم الأشعة بشحناتها الكهربية المختلفة مع كل من أحزمة الإشعاع ونطق الثأين في الغلاف الغازي للأرض وتفرع شحناتها فتوهجها. والجسيمات الأولية للمادة متناهية في الذقة، وتحمل شحنات كهربية عالية، وتتحرك بسرعات تقرب من سرعة الضوء، ولم

١٩ مسئلة علوم الأرض ورئيس لجنة الإشعاع العلمى بالجلس الأعلى للعلوم الإسلامية / مصر.

لزومية

أ.د. حسن الأمرائي*

أختاه! إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة
لهي المعاني والمعاني الزاخرة

فأنقضي برياضِ دُكُرٍ مونسٍ
وتأنقسي شِعْراً.. لألّى فاخرة

شِعْراً إلهياً يؤانسني إذا
ما صرْتُ - يا أختي - عظيماً لآخرة

ما هذه الدنيا وإن عرّضت لنا
صورَ الجمال سوى فُصولٍ ساخرة

بحرٌ خضمٌ مُوجّهٌ ملاحمٌ
والناسُ فيه أغنياتٌ مآخرة

والحبُّ خيرُ الزَّادِ لو علم الفتي
وقعائله الموقور نغم الآخرة

ماذا علينا لو ركّبتنا عُرْجَه
شوقاً، ووجهتنا نعيم الآخرة؟!

* رئيس تحرير مجلة للشكاة / المغرب



مدارس ودروس

من "دايتون" الأمريكية إلى "أبنت" التركية

د. إبراهيم البيومي غانم

حين ٣ يوليو ٢٠٠٦ إلى مدينة "دايتون" في ولاية "أوهايو" الأمريكية للمشاركة في الملتقى السوري لـ "كاتولج فانديش" (Kettering Foundation) حول "الديمقراطية البدائية"، وبرنامج علمية أخرى مصاحبة لهذا الموضوع، ومنها لقاء للمجموعة العربية لبحوث وقضايا الديمقراطية. أما الرحلة الثانية فقد كانت من يوم ٩ حتى ١٧ يوليو ٢٠٠٦ إلى إسطنبول، ومنها إلى منتج "أبنت" (Abant) بمدينة "بولو" (Bolu) التركية -حلي مسافة ١٥٠ كلم شمال العاصمة أنقرة- وذلك للمشاركة في منتدى "أبنت" حول "سياسات العولمة ومستقبل الشرق الأوسط".

أما لمدة التي استغرقها في الرحلتين فكانت ثلاثة أسابيع، قضيتها مناصرة بين أمريكا وتركيا. وكان من تقدير الله سبحانه -وبدوى سباق تريب مي- أن أشارك في ندوات علمية تكاد تكون متماثلة في الرحلتين، وأن أروى بعض المؤسسات والهيئات الاجتماعية والتفافية التي تنصني إلى المجتمع المدني في الحالين؛ إلى جانب الشحوال الحر وروية بعض للعالم الأثرية والمزارات

فالواضح أن في السفر عوائد كثيرة تظهر في حوارات مختلفة من حياة المسافر، منها زيادة رفته، واتساع علمه، وتقوية صحة جسمه، وسكينة نفسه، وتفتح حرقه، وكثرة معارفه وأصدقائه، وتجدد الخيال إلى أهله ووطنه والديار التي كان فيها مسقط رأسه. وقد جمع الشاعر بعض تلك لعوائد في قوله:

لعرُبُ عن الأوطان في طلب العلا
وسافر فلي الأسفار حسن عوالم
تفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وأداب وصحبة حاحد.

لواء الأسفار

ولكن يبدو أن لواء السفر الحديث في أيامنا يختلف في عددها وفي نوعها عن عوائد السفر القديم الذي عرفه البشر في الأيام الخالصة. فهي أكثر منها عدداً وأصلح منها أثراً. وهذا هو ما بين لي بعد سفرين متتابعين: الأول كانت من يوم ٢٢ يوليو

ق



عليه في عدد معقول من السبلين عقد أو عقدين مثلاً، ولكن ما كل ما يتعين المرء يدركه، وما رأيته زاد همومي ولم يفرجها.

مشاهد الهجعة في مطار إسطنبول

وإذا كانت أول فرائد السفر القديم قد ضاعت مني في رحلتي إلى أمريكا في الغرب، فقد أحرقتها في سفري التالي إلى تركيا في الشرق. كان المشهد الأول مهجاً في مطار إسطنبول: مطار حذيت على آخر صبيحة وقد هبطت الطائرة في المطار الجديد، وهو كبير الحجم، هائل النفاذة، دقيق التنظيم والانضباط وسهولة الحركة، وإجراءات الأمن والسلامة والتفتيش تتم بيسر وسهولة، ونقص هذا الجميع دون أدنى تميز بين المسافرين، لا فضل لعمري على أعجمي، ولا لتركبي على أوري أو أمريكي. ولا تستغرق عملية تدقيق الحوائزات وتأشيرات الدخول سوى بضع دقائق. وما كنت أخرج من بوابة الخروج حين وجدنا في استقبائنا ثلة من الفتية ذوي الوجوه البشوشة، والأيدي المملودة لمساعدتنا في حمل الحقائب، مع كلمات الترحيب بلغة عربية رشيقه فيها وتمتع بسماعها من أفواه شباب أتراك تتألفوا في خلدنا من أول يوم حتى آخر لحظة. قبل مغادرتنا إسطنبول حتى كنتا نيكبي من فرط كرمهم وتواضعهم.

كان هذا المشهد الأول في تركيا كفيلاً بأن يبدد بعض الهوم المعتزلة من رحلتي إلى "دانيون"، فها هم أولاء أناس من بلد مسلم وشرق أوسطي عريق مثل تركيا يقبلون بمودحة لا يقل في روعته عما ضاهدناه في أمريكا من النظام والنفاذة والانضباط وسهولة الحركة وكفاءة العمل في مرافق حيوي وواجهة من واجهات الدولة. يوماً بعد يوم في تركيا من إسطنبول إلى "بورصة" إلى "بولو" ومتنوع "إلنت"، كانت همومي تفرج شيئاً فشيئاً، وذلك بعد أن أخذنا أصحاب الدعوة من تلامذة الأستاذ "محمد فتح الله كولن" في جولة سياحية وعلمية، وأبنا فيها عدداً من المشروعات الحديثة لافتة الروعة في شكلها ومضمونها، أو في مبالغها ومعانيها: مدرسة وحامدة ومستشفى وصحيفة وتلفزيون، كما رأينا فيها سلسلة من الآثار التاريخية النادرة وفي مقبعتها المساجد والقصور التي تستشعرها تركيا عامة، وإسطنبول خاصة، والمتاحف وأهمها متحف "طوب قاي" الذي يضم آثار العهد العثماني.

شخصية الأستاذ "فتح الله كولن"

والأستاذ "فتح الله كولن" هو من الشخصيات ذات الأثر الواسع داخل تركيا وخارجها، ويحتاج إلى أكثر من مقالة لتعريف القارئ

السياسية في بعض المدن الأمريكية هناك في أقصى غرب العالم، وفي بعض المدن التركية هنا في قلب الشرق، وتحديدًا في إسطنبول التي كانت يوماً عاصمة الشرق كله.

هوم الأسفار

بالنسبة لفائدة "تفريح الغم"، فإن الذي حدث معي هو العكس في سفرتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إذ إن همومي زادت ولم تفرج! وأول ما وحلته هو أنني أوجست في نفسي خيفة عندما وطئت قدمي أرض مطار "سينسيناتي" في وسط غرب الولايات المتحدة الأمريكية. كانت هذه هي أول رحلة في إلى أمريكا، وأنا طبعاً قادم من بلد شرقي أوسطي قديم، إلى بلد غربي متطور علمياً وتكنولوجياً، وشعرت ساعتها بأنني في حيرة من أمري؛ فمطار سينسيناتي هائل الحجم، هائل التنظيم، هائل النفاذة، يعج بالمعادين والقدامين، وكلها أمور أثارت في نفسي عواطف مختلطة بين الإعجاب والضييق، وكنت كلما نظرت إلى النفاذة والتنظيم والانضباط والسهولة في الحركة داخل المطار في سينسيناتي، وفارنت ذلك كله بما رأيته وعرفته ويعرفه كثيرون عن مطارات شرق أوسطية - ومنها بعض مطارات بلادتي - زاد اختلاط الإعجاب بالضييق في نفسي، وصاف صدمي ولم ينطلق لساني أكثر من مرة، فلم أرَ على تعليقات أحد رفقاتي في الرحلة كان يحاول لغت نظري إلى بعض تلك المعاني التي حالت في خاطري.

ثم جاء مشهد إجراءات الأمن والسلامة التي ينضجها الجميع، مع قليل من التمييز السطحي ضد ذوي الملامح الشرق أوسطية أمثالنا وغير الأمريكيين عموماً، ولكن التعامل مع الجميع كان مهدياً ولم يخل من بعض الدعايات.

ثم تقارفت همومي التي حملتها من بلدي، بل إن تلك الهوم كانت تريد ولا تنقص ناهيك عن أن تفرج كلما مر يوم عليّ في "دانيون" أو في ضواحيها. وهمومي التي أقدت عنها هي هوم التخلف الذي يعيشه في بلادنا، وهوم حالة الفوضى غير الخلاقة التي تسحق أدمية أغلبية أبناء شعوبنا العربية والإسلامية ويصادفونها في معظم زوايا حياتهم. وجدت أن ثمة فجوة هائلة بيننا وبينهم فجوة أكر بكثير مما كنت أتصور وأعرف من خلال قرأاتي ومعرفتي عن بُعد بالمجتمع الأمريكي. كنت أمي نفسي في أول مرة أسافر فيها إلى الولايات المتحدة بأن تكون الفجوة بيننا وبينهم أقل عمقاً وأضيق نطاقاً، وأن يكون عبورها مقدوراً



المدرسة - بالمعنى الواسع أيضاً - عبارة عن سلسلة من المشروعات والمؤسسات التعليمية والبحثية والثقافية، تعتمد في تمويلها على ريع وفيات - أيضاً كما في حالة كاترينج الأمريكية - حصصها رجال أعمال وعسكرون أتراك، أغلبهم من تلامذة الأستاذ "فتح الله كوتلي". هي مدرسة ذات طابع مختلف عن مدرسة "مؤسسة كاترينج"، ولكنها تقوم بمهام مماثلة في نشر العلم وإنتاج الثقافة وبناء مجتمع المعرفة، وتسعى للإسهام بخدمة بالغة في تقديم المجتمع التركي خاصة، وفي إسعاد الإنسانية عامة. أما درس العطاء فقد لمسته، كما لمسه جميع رفاقني في الرحلة، في الأداء رفيع المستوى، بالغ الإقناع لكل من قابلناه في تلك المؤسسات، وليس ثمة مصدر يدفعهم لذلك سوى الإيمان العميق بالرسالة التي يؤدونها، وكان لافتاً للنظر أنك لا تستطيع أن تجد أيهما أكثر روعة: العصر البشري العامل في تلك المؤسسات من الشباب والفتيات، أم تلك المؤسسات نفسها. وذات مرة قلت لأحد رفاق السفر: ما أروع هذا المين، فرد قائلاً: الأروع هم هؤلاء البشر المتفانون في عملهم. قلت: لن تختلف كثيراً، فمين رائع كهذا لا بد أن يشكده ويديره أناس رائعون كهؤلاء.

أحد المحسنين الذين قابلناهم هو "الحاج علي كزواتجي"، رجل أعمال عصامي، لفت نظره أن الأستاذ "فتح الله كوتلي" يحرص بإصرار على أن لا تمس يده أموالاً للترغبين لأعمال الخير التي يدعونهما، فقرر أن يفت تروته وحياته لأنظمة الإنسانية التي يشجع عليها؛ فبنى سلسلة بدعية من المدارس ومسجداً أيضاً إذا دخلته تب أن تبقى فيه ولا تخرج منه، من فرط الراحة التي تشعر بها وأنت داخله. وأمثال الحاج "علي كزواتجي" كثيرون في تركيا، وبفضل عطايتهم نشأت مؤسسات ومشروعات حضارية بكل ما تحمله كلمة "حضارة" من معنى.

مدرسة في الأخلاق ودرس في التسامح الإنساني

على الجانب الغربي وفي "إندبانا" هذه المرة كانت مدرسة الأخلاق - بالمعنى الواسع لكلمة مدرسة كذلك - هي جامعة "نورتدام" الكاثوليكية، والحقيقة أنني لم أتوقع وجود مثل هذه السرعة الأخلاقية من حيث الأصل في بلد مثل أمريكا، وجامعة نوردام هي من الجامعات للحفاظ بكل المعاني التي تشير إليها كلمة "الحفاظة". وقد أتيج لي أن أطلع عن كتب على أحد المعاهد التابعة لها، وهو "معهد كزوك"، وتحدثت مع مديره "سكوت أبلسي"، ومع عدد من الباحثين والموظفين، وكان أكثر ما شدد

الغري به وأفكاره ومبهمه في الإصلاح. وهو لمن استوعب منهج مدبح الزمان النورسي في فهم الإسلام، وقد استطاع أن يقدم رؤية خاصة به في الإصلاح والدعوة، وله العديد من المقالات والمؤلفات القيمة، كما أنه تياراً واسعاً للحنين له والمتأثرين برويته الخطارية، منهم نسبة مؤثرة من رجال الأعمال والأثرياء الذين يتولون تمويل المشروعات الخيرية التي أكد الأستاذ على أهميتها وحث على تفعيلها طوال حياته، وما أكثرها، وذلك من خلال نظام الوقف المنتشر على نطاق واسع في تركيا، حتى إن لكل مرفق أو حزمة "وقفاً" يورث المال اللازم لتمويل المشروعات والبرامج التي يقدمها، وبني تلك المؤسسات والمشروعات عن دل الحاجة إلى التمويل الأحمي الذي اضليت به كثير من بلداننا العربية.

نعود إلى بقية فوائد السفر القديم وهي "اكتساب العلم والآداب وصحة الماد"، وقد حصلت من ذلك قدر استطاعتي. وقد حظرتين الرحلتان إلى أمريكا وإلى تركيا إلى ضرورة إعادة النظر فيما قاله السابقون عن فوائد السفر القديم، واكتشفت فوائد جديدة تريد كثيراً على ما ذكره فدعاء المسافرين. وما اكتشفته: اكتساب الخبرة، ونقد الذات، وإدراك القواسم المشتركة بين بني آدم أيما كانوا وحيثما حلوا، وتبادل الدروس الإنسانية، ومقارنة المدارس التعليمية والتربوية بين الشرق والغرب، وغير ذلك مما يطول شرحه ويصعب حصره هنا. ووجدت أن لكل فائدة مدرسة فتحتها، ودروساً تعبر عنها، ومن المواقف الحسنة وجود أوجه شبه مؤثرة بين مدارس ودروس السفر إلى ديفون في أمريكا، ومدارس ودروس السفر إلى "آيت" في تركيا، وهذه هي خلاصتها:

مدرسة في التربية والتعليم، ودرس في العطاء

على الجانب الغربي وفي "دايتون" كانت المدرسة - بالمعنى الواسع لكلمة مدرسة - هي مؤسسة "كاترينج" التي ترعى عديداً من البرامج التعليمية والتربوية والبحثية، وتقوم بتمويلها من عوائد وقفيتها الخاصة، وترتكز منذ عقود على قضية أساسية هي ما تطلق عليه "الديمقراطية التداولية"، أو "الديمقراطية التشارورية". أما درس العطاء فقد لمسته من أغلب العاملين في "كاترينج" بدءاً بريس المؤسسة ديفيد ماتويوس، مروراً بمساعديه بمختلف مستوياتهم، حقيقة وحدهم يعملون بروح الفريق، ويدافع قوي لا يمكن أن ينح إلا من الإيمان بالرسالة التي تقوم بها المؤسسة في خدمة العلم والمعرفة بشكل عام، وفي تقديم المجتمع الأمريكي بشكل خاص. أما على الجانب الشرقي وفي "إسطنبول"، فقد كانت



تتميز. وفي كل مؤسسة من تلك المؤسسات لمسا درس التسامح الإنساني في عمقه الإسلامي. ومن أفضل التعييرات عن هذا الدرس ما قاله يعقوب أحد المسؤولين عن تلك المؤسسات وهو: "إذا تحدث العالم عن الإنسان، فحين المسلمون أول من يجب البشر، ولجب الفكر، لأن الله خلق هذا وذاك، وعلينا أن نتحاور مع الآخر هذه الروح، حين وإن كان يفكر بطريقة مختلفة عنا"، وإن الغاية من هذه المؤسسات هي تنشئة أجيال صالحة تعمل لخير الإنسانية. أنا قرأت كل تلك المشروعات اترقية باعتبارها تطبيقاً لمدرسة الأخلاق الإسلامية العملية، وباعتبارها درساً في التسامح الإسلامي الإنساني، وهذا هو لب الرسالة الإسلامية؛ إذ ليست تعاليم الإسلام مجرد كلام نظري، بل هي قول وعمل، وإيمان وتطبيق، وهذا ما رأيناه بأتم اعتنا هناك في تركيا، وبود أن نرى مثله في بقية البلدان العربية والإسلامية.

مدرسة في المجتمع المدني ودرس في المشاركة

هناك في "دابسون" اطلعنا على مدرسة متكاملة في "المجتمع المدني"، أو ما يمكن أن نسميه "السياسة المدنية"، بالمعنى الذي قصده الفارابي وابن خلدون وغيرها من أعلام الفكر الإسلامي، وهذا المعنى يركز على التثوير في كيفية تسيير شؤون الناس اليومية بأفضل طريقة تكفل تحقيق مصالحهم المادية والمعنوية معاً. هذا هو جوهر معنى السياسة المدنية، أو المجتمع المدني كما قدمه علمائنا السابقون، ويطبقه الأمريكيون فيما بينهم وعلى مستوى قضاياهم الداخلية على الأقل. وهذا هو ما رأيته وأدركته من خلال مشاركتي في المنتدى السنوي لمؤسسة كاترنج حول "الديمقراطية التناوبية". وسواء اقتبسوا هذا المعنى للمدني للسياسة من علمائنا أم توصلوا إليه باحتياهم فالتيجة واحدة، وهي أنهم حاققون في البحث عن كيفية تفعيله في واقعهم الاجتماعي، وكيفية إعادة للمواطنين إلى المجال العام والمشاركة في قضايا هذا المجال والاعتناء به.

وقد دأبت مؤسسة كاترنج منذ خمسة وعشرين عاماً على تنظيم حلقات نقاش حول قضايا الديمقراطية، واستطاعت أن تقدم للمجتمع الأمريكي مجموعة من الإسهامات المهمة النظرية والتطبيقية، التي استهدفت حل المشكلات التي تعترض المواطنين في علاقهم بالسلطة والسياسة والتعاون العامة من جهة، وبناء ثقافة السياسة المدنية وتفعيلها على أرض الواقع من ناحية أخرى، وهذا هو جوهر "درس للمشاركة" الذي جعلته مؤسسة كاترنج نصب

انتهائي هو المناخ الأخلاقي الذي يعمل فيه الجميع، استناداً إلى قاعدة قوية من التعاليم الدينية الكاثوليكية، ربما كان أفضل من يجسدها هو مدير معهد كروك المذكور القس سكوت أبلي. قال لي: "لو حُوت بين أن أشعل أعلى منصب في الدنيا، وبين البقاء في هذه الجامعة لاحتريت البقاء في جامعة نوردام". أما الناس الأكثر تأثراً فيمن يدخل هذه المدرسة فهو درس التسامح الإنساني، الذي عبرت عنه ليس فقط كلمات من قائلها في المعهد، ومتاعهم الودودة لها، رغم علمهم أنها شرف أو سخطون، وإنما أيضاً وجود أناس مختلفي المواقف من الدين فاته، ومن الكاثوليكية نفسها التي هي جزء من اسم جامعة نوردام. فهناك مسلمون، ويهود، ومسيحيون، ودهريون، وكان لسان الحال يردد قول الله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٢٩)، وكذلك عبرت عن هذه التفرقة الإنسانية المشروعات والبرامج البحثية والتعليمية التي تستهدف في أغلبها دعم قيم الحوار والسلام والتسامح بين مختلف الشعوب والأمم.

أما على الجانب الشرقي، وفي مختلف المشروعات التي زرتها في إسطنبول وفي مدينة "بورصة"، تجلت مدرسة الأخلاق بأبهى ما يكون التحلي، وإذا قارناها بمدرسة "نوردام" الأمريكية التي أومأنا إليها، سنجد أن مدرستها في تركيا أعمق حلوراً، وأكثر غصوناً، وأصدق قبلاً، وأثقي فعلاً، فهذه جامعة، وهذا مستشفى، وتلك صحيفة، وهذه مدرسة ابتدائية، وهذا تلفزيون... جميعها في إسطنبول، وبعضها له أفرع خارج إسطنبول، وكلها مؤسسة على أحدث تكنولوجيا العصر؛ حين إنها تبهر أرائر وتغعله لا يصدق ما تراه عينا، وربما يشعر أنه في حلم وليس في "علم" يراه رأي العين، فلا يملك إلا أن يقول "ما شاء الله لا قوة إلا بالله"، ولا يملك إلا أن يدعو للقائمين على تلك المؤسسات بالتسديد والتوثيق، ولا يملك إلا أن يتحسر على أحوال بلاده المتردية - كما هو حالنا - في أغلب المؤسسات والمراقب الحكومية وغير الحكومية. والأمر المهم في كل ذلك هو أن تلك المشروعات على تنوعها نبعت من أصل واحد هو الروح الإسلامية، والأخلاقية الإسلامية، التي تحظى في أحد مبادئها على حتمية أن يتقن الإنسان عمله، وذلك انطلاقاً من قول الرسول الكريم ﷺ: "إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً من أجله" (٧)، وقد شهدنا بما علمنا ورأينا أن هؤلاء المسلمين الأحرار قد أنفقوا ما عملوه من مشروعات عالية الجودة، فائقة التقدم، ووفرة النفع للمجتمع والدولة، للمسلمين ولغير المسلمين، دون تفرقة، أو



يمكن تقوية الثقافة المدنية الكفيلة باستعادة المواطنين إلى السياسة وشؤون المجال العام، وكيف يمكن ترسيم الديمقراطية الأمريكية بعدد أن أصابع الوهن وتهدمت بعض دعائمها. أما في "أنت" فقد كان أهم الأساس هو كيف يمكن بناء المجال العام، وكيف يمكن هيئة الهيئة الأساسية للممارسة الديمقراطية، أو الشورية. كان ذلك واضحاً في الملتقيات الماضية للمقندين، وحسب في الملتقى الأخير في يوليو الماضي -رغم أن موضوعه كان عن سياسات العولة وانعكاساتها على مستقبل الشرق الأوسط- وقد عبر عن هذا الدرس بوضوح وعمق في آن واحد اليوفيسور "كمال كازيات" -وهو أحد أشهر أساتذة التاريخ في تركيا- وذلك عندما شدد في كلمته بالمنتدى على أن لب المشاكل التي تعاني منها بلدان الشرق هي "أن المجال العام في هذه البلدان لم يتطور، ولذلك اتسعت الفجوة بين الشعوب والحكام، وما لم يتطور المجال العام، ويحترق فيه أكثر عند ممكن من المواطنين، فسوف يظل الاستقرار بعيد النال، وسوف يظل التحديث ضرباً من الخيال". هكذا تحدثت كمال كازيات، واخترق معه فيما قال. هناك منشور طويل أمام مجتمعنا في الشرق لتعلم درس المشاركة وتحويله إلى ممارسة مؤسسية، وهذا أحد أهم الدروس التي أشتهد فيها "مدرسة المجتمع المدني في تركيا"، ويسهم فيها منتدى أنت بسهم وافر.

بعد الرحلتين، إلى الولايات المتحدة الأمريكية في الغرب، وإلى تركيا في قلب الشرق، وبعد أن تين ما هنالك من هوم مشتركة، وجهود متشابهة تسعى للتغلب على المشكلات التي تعاني منها الإنسانية المعاصرة، قلت: لا بد من إعادة النظر في قول كينج -خاضع الإمبراطورية البريطانية العنوز- "الشرق شرق، والغرب غرب، وهيات أن يلتقيان"، فهما قد يلتقيان، وقد بدأ يلتقيان في بعض الحالات، حتى وإن حاول محترفو السياسة الإبقاء على الفجوة بين الشعوب والأمم. فمن مصلحة البشرية أن يلتقي بنو آدم جميعاً؛ كانوا في الشرق أم في الغرب، في الشمال أم في الجنوب. وقبل أكثر من خمسة عشر قرناً قرر الإسلام العظيم المساواة بين البشر جميعاً، وأكد أن كلنا لآدم وآدم من تراب، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح. ■

(١) أساتذ العلوم السياسية - جامعة القاهرة / مصر.

(٢) جمع الرواد، ٤/٩٤.

عنها منذ عدة عقود. ويتضح من مراجعة البرامج والمشروعات البحثية التي ترعاها كاترنج أنها تشير بأن الديمقراطية الأمريكية في خطر نتيجة تزايد حالة العولة والاعتراق بين المواطنين، وعدم الاهتمام بالشؤون العامة، ومن ثم اجتهدت المؤسسة في البحث عن الطرق الكفيلة باستدعاء دور الشعب من جديد، وإعادة اكتشاف المواطنة، وبالتالي ترسيم الثقافة المدنية التي تمهد لإشراك الشعب في الحياة السياسية من جديد.

وفي "أنت" التركية أطلعت على برامج ومشروعات مدرسة أخرى في "المجتمع المدني" بالمعنى السابق شرحه، وشاركنا في لقائنا الدوري للحوار والتداول في أثناسيون العامة التي تهم تركيا وهم غيرها من بلدان منطقة الشرق الأوسط. وقصة "منتدى أنت" كمؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني بدأت قبل نحو عشر سنوات بهدف لسم شمل المظفين والأكاديميين الأتراك من كل الاتجاهات السياسية والفكرية والمذهبية، والانتقال من حالة الاحتراق والصراع إلى حالة السلم الاجتماعي والتعاود، بهدف تقوية الثقافة المدنية السلمية داخل المجتمع التركي، ثم اتسعت اهتمامات المنتدى بعد ذلك إلى حصارح تركيا من أجل تحقيق الأهداف دائما ولكن على مستوى عالمي. ويعتبر "منتدى أنت" أحد المؤسسات التابعة لـ "وقف الصحفيين والكتاب" الذي كان قد تأسس بمبادرة من الأستاذ "فتح الله كولن" سنة ١٩٩٤.

تبعاً من رئيس وقف الصحفيين والكتاب قصة نشأة الوقف، وكيف تطورت أهدافه وتمت مشروعاته، وكيف انبثقت منه فكرة منتدى للحوار، وكيف أصبح المنتدى مستقلاً في إدارته وفي نشاطاته عن وقف الصحفيين والكتاب. وتبين أن الفكرة الأساسية الموجهة لهذا المنتدى هي فكرة "الخسوار المدني"، وهي من أفكار الأستاذ "فتح الله كولن" من أجل تكوين قاعدة صلبة للمشاركة في الشؤون العامة، والتوصل إلى أفضل الحلول للمشكلات التي تواجه المجتمع التركي، ثم اتسعت آمال أصحاب المنتدى إلى النطاق العالمي، وأصبح المنتدى "فولداً" يرمي على إمكانية التعايش بين المختلفين، والتعاون فيما هو متفق عليه، واحترام وجهات نظر المختلفين، مع إعمال التفكير النقدي فيها لتوسيع الفواصم المشتركة وتفضيل مواطن الاختلاف قدر المستطاع.

درس "المشاركة" في الشأن العام انطلاقاً من مفهوم المجتمع المدني والسياسة المدنية، عبر عنه بعض المشاركين في منتدى "أنت"، ولكن بطريقة مختلفة عن تلك التي وجدناها عند مؤسسة كاترنج في دايون الأمريكية؛ هناك في دايون كان مهمهم الأساسي هو كيف



سراج الروحي



في حياة الأستاذ سعيد النورسي

أ.د. محمد سعيد ومعتاد البوطي

ق

قالوا: "كان التصوف في صدر الإسلام مسلياً لا اسم له، ثم أصبح اليوم اسماً لا مسلياً له".

وأقول هي كلمة صحيحة ودقيقة! فإن المسلمين

في صدر الإسلام كان هُهم الأول تركية النفس الأمارة بالسوء، والسموُّ كما في مدارج البرية إلى مرتبة النفس الراضية والمطمئنة دون أن يدعوا لذلك اسماً غير الاسم الذي سمى الله ﷻ به، وهو الجهاد التأسيسي الذي يبدأ بتركية النفس وتربيتها، وهو العمود

الغفري في منهاج السلوك إلى مرضاة الله.

ثم إنه حُلف بعد ذلك الرجل الأول خلفاً، أفردوا هذا المنهج السلوكي اسماً جديداً لا عهد لمن قبلهم به، وما لبثوا أن أولوه أهمية بالغة من حيث إنَّ هذا المنهج الربوي هو المدخل الذي لا بدَّ منه لسائر أنواع الصلاح الفردي والاجتماعي.

غير أن الاهتمام بالاسم الجديد تغلب حسنة قسباً على الاهتمام بالسمي القديم، فنولك من ذلك نبار من الانحطاب إلى



كان- كما قلْتُ لكم- بُاب الإسلام ومكونه، وكانت علاقته بأحكامه السوكية الطاهرة، كعلاقة الروح بالجسد.

سنوحت وبانية

ولقد كان من نتائج هذه العوامل سنوحت وبانية عُلوية، يفيض لها قلبه، تعلو به في سَلَم المقامات، وترقى به إلى أعلى تلك الدرجات. من هذه المقامات أن يصل السالك من جهوده وجهاده إلى تكرار الذات والقاء في المنعم ﷺ والرقى إلى أعلى درجات الإحسان، وهو عدم شعور العبد بإحسانه، وذووله عن أحواله ومقاماته.

وليكم بيانه هذه الرتبة التي لا يتلوفاها ولا يرفى إليها إلا من أخذت مجامع نفسه تنقو عبودية لله، وناله منها ما يشبه الشُّكْر، يقول: "قال لي أحد الأتقياء في قسطنطين شاكياً: لقد تدرّبت وتلهّفت عن حالي السابق.. إذ قدّدت ما كنت عليه من أحوال وأذواق وأتوار. فقلت له: بل ترقّيت، واستعليت على الأفواق والكشوف التي تلاطف النفس وتديفها فمرقا الأخرية في الدنيا، وتعطيتها الشعور بالآثانية والغرور.. وقد طرت إلى مقام أعلى وأسمى، وفلك بتكرار الذات وترك الآثانية والغرور، وبعدم تحرّري عن الأذواق الفانية.. نعم إن من الإحسان الإلهي للعبد أن يُبسّيه إحسانه ببقائه عن نفسه التي لا حول لها ولا قوة ولا وجود إلا بالبحسب الأوحد وهو الله سبحانه".^(١٧)

أليست هذه السلوحت من المسميات التي لم يكن لها في صدر الإسلام اسم مختص؟ لقد كان لها حضور بارز في ذلك الصدر الأول، ولكن لم يعبر عنها إلا بما سماها الله تعالى به، وهو تركية النفس والصعود الدائم في درجات الإحسان.

ولقد كان من آثار هذه العوامل أيضاً تنامي مشاعر الخشية من الله بين جرائه، وحبسة الرقابة الإلهية على قلبه، وتعاطف الخوف في نفسه بما هو مقبل عليه بعد الموت. وكلها مسميات قدسية لهذا الذي يسمى اليوم تصوّفاً، ولكن لم يكن لها وراء اسم العبودية المضاعفة لله تعالى حينذاك أي اسم مصطنع آخر. ولتأمل ترجمة هذه الآثار لديه في هذا الدعاء الواجب الذي صاغه الأستاذ الورسي رحمه الله باللغة العربية، وكان يتاجى به ربه ﷻ في أوقاته الخاصة. يقول رحمه الله:

"يا إلهي الرحيم يا إلهي الكريم! قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراهما في يدي إلا آثام مؤلمة ملئمة، وآلام مضرة مطنة، ووساوس مرعبة معجزة... وأنا لهذا الخجل الثقيل والقلب الغليل والوجه الحجل، أدنو إلى باب قفري.. بيت

كلمة التصوف. ولا ريب أن العامل الأول لهذا الانجذاب إما كان اقتران الكلمة بأعمال التربة النفسية التي هي لباب السير على صراط الله ﷻ، ومن ثم فهي لباب الإسلام. ولعل رجال "الرسالة القشورية" من أبرز من يمثّلون هذا العهد.

ثم جاء على أعقابهم خلف آخر غدت كلمة التصوف عندهم أشبه بقية ليس في داخلها مزار، ولقد امتدّ عهد هذا الخلف إلى عصرنا الذي نحن فيه. إنك تنأمل فيجد أن التعامل اليوم إما هو مع بريق هذه الكلمة وما يشع منها -بحكم الاقتران الطويل- من مظاهر الصلاح والتقوى وأصول الإرشاد ومناهج التربية والسلوك إلى مرضاة الله. وعندما تبحث عما تحت هذه الكلمة من هذه المصامين لا تجد شيئاً. وهكذا فقد عدا التصوف اليوم -كما قالوا- اسماً لا مسمى له.

النورسي الاستثناء

غير أن مسمى المعلوم أنه ما من قاعدة إلا ويعتريها شلوك، وما من عموم إلا ويلحقه استثناء، فلا يزال في المتصوفة من هم على سلك الرعيّل الأول، وإن لأجد أن سيرة الأستاذ لرشد سعيد النورسي، كانت مظهر هذا الاستثناء. كانت مظهر حال الرعيّل الأول من المسلمين؛ إذ كان التصوف عندهم مسمى لا اسم له. ولا ريب أن في عالمنا العربي والإسلامي من يشارك في هذه الحال الاستثنائية. ولكهم قلة لا يتجاوزون عدد الشلوك من القاعدة والاستثناء من العموم.

في أكثر من موضع في (اللمعات) يصرح الأستاذ النورسي رحمه الله بأنه ليس صوبها. ولكنه في كل ما يتخاطب به تلامذته من فؤاد الصبح والتربية والإرشاد، لا يخرج عن ذلك الباب الذي كان هو مسمى التصوف بل مسمى الإسلام في عصر السلف الصالح رضوان الله عليهم.

ولقد كان في مقدمة العوامل التي أكرمته بالصفاء الروحي وأيّنته بالإخام الصائب والفتوحات الربانية تلك الساعات الطويلة التي كان يأخذ نفسه فيها بالأذكار الماتورة والأوراد التي تنسب إلى كبار الأولياء والمرصدين، كالأوراد الغدسية لنشأة نقشبند، وكالوجش الكبير الذي كان يقرؤه ويوصي بقرائه؛ كما كان من أهم تلك العوامل حلواته الكثيرة والطويلة التي يخصيها في شواهد الجبال، وأحياناً على مقاعد في أعالي الأشجار، بحاسب فيها نفسه ويراقب فيها ربه، ويتأمل صفات الخالق في مرآة مخلوقاته الكونية. وهل كان ذلك كله إلا جزءاً من المسمى الذي لم يكن له في صدر الإسلام هذا الاسم الذي شاع له من بعد "التصوف". ولكنه

الرحلة والانتفاد في طريق أبدأ الآداب، مفارقة هذه الدار الغالية
الخالقة باليقين، والأهلة الراحلة، والغدارة للكثرة لا سيما لمتلى
ذوي النفوس الأمانة.

فيا ربي الرحيم وبيا ربي الكريم! أراي عن قريب وقد لبست
أكتافي وركبت تابوتي، وودعت أحبابي، وتوجهت إلى باب
قبري، فأنادي وأنا على باب رحمتك: الأمان الأمان، يا حنان يا
منان، ليخني من حجل العبيان.

آء... كعني على عني، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي
إلى باب رحمتك، أنادي: الأمان الأمان، يا رحمن يا حنان،
خلصني من ثقل حمل العبيان.

آء... أنا ملتبس بكفي وساكن في قبري، وقد تركي المشيعون،
وأنا منتظر عفوك ورحمتك مشاهد بأن لا ملجأ ولا منجى إلا
إليك، وأنادي: الأمان الأمان من ضيق المكان ومن وحشة
العبيان، ومن قبح وجه الآتام، يا رحمن يا حنان وبيا ذنان، ليخني
من قيود الذنوب والعبيان.

إلهي! رحمتك ملحتي ووسيلتي، وإليك أرفع يتي وحزني
وشكائتي.

يا خالقني الكريم، وبيا ربي الرحيم، وبيا سيدي ومولاي!
مخلوقك ومصروعك وعبدك العاصي العاجر الغافل الجاهل العليل
الليلبي المسيء لنسب النبي الأبي، قد عاذ بعد أربعين عاماً إلى
بابك، ملتبساً إلى رحمتك، معزفاً بالذنوب والخطيئات، مبتلي
بالأسقام والأوهام، منصرفاً إليك... فإني تقبل وتغفر وترحم
فأنت لتلك أهل وأنت أرحم الراحمين، وإلا فأني باب يُقصد
غير بابك، وأنت أرحم للقصود والحق للعبود، ولا إله إلا أنت
وحده لا شريك لك.

آخر كلامي في الدنيا وأول كلامي في الآخرة وفي القبر:
أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله
عليه وسلم.^(٢)

تأمل في هذه الحاجة التي لا تبتغي إلا من قلب متنازع بلوعة
التعظيم والخشية والحب، فياض بمشاعر العبودية الراحلة لله
ﷻ... وتساءل معي: من أين تعجزت في قلبه هذه الأحاسيس
العلوية للصرفة بكنيتها إلى اللأ الأعلى، والمعرضة عن ملكوت
الأرض وخاروف الدنيا؟

أما إن هذه الأحاسيس لا تبتغي إلا من قلب من أجل نفسه
بأوراد الصباح والمساء، وغدّى فطرته الإنمائية بالكثير من ذكر
الله ومراقبته، وأكرم نفسه منهاج دائم من الثقل في مدارج
السالكين، وهل كان هذا إلا فبدن الرعيل الأول من المسلمين،

وهل كان هذا في حياتهم إلا عملاً بدون عنوان مثير، ومسمى
بدون اسم مصطنع؟!

وما أظن أن الأستاذ النورسي نفى اسم التصوف عن نفسه في
أكثر من مناسبة وقفت عليها، إلا ليحصل من نفسه أمام الله تعالى
قشلاً بتواضع وصمت، لا قرألاً يتجمل أمام الناس بالعابدين
والألقاب، ولعله أراد بذلك أن يشد نفسه إلى عهد السلف
الصالح فيسبر على نهجهم ويتلهم من وردهم، ويتحقق بذلك في
نفسه الشطر الأول من مقولة: "كان التصوف في صدر الإسلام
مسمى لا اسم له..".

موقف الأستاذ النورسي من البدع

في تناس من يظن أن من شأن الدين يكترون الاهتمام بأسباب
التركة النفسية، وأحوال القلب ومقامات القرب من الله، أن
يتساهلوا في البدع وأن يذهلوا عن خطورة الركول إليها وعن
شدّة تحذير رسول الله ﷺ منها.

غير أن الواقع خالف هذا الظن قماماً، فما تبعتها حال من
سلكوا -بصدق- مسائل التركة النفسية واهتموا بمراقبة أحوال
القلب وسبل التقرب إلى الله، إلا وأربابهم من أكثر الناس ابتعاداً
عن البدع ومن أشدهم تحذيراً منها. وأرجح إن شئت إلى الرسالة
الغشيرة وتأمل في تراجم رجالها، تجد الجامع لكثرتك بينهم
تلاقيهم على نيل البدع ومخاربتها.

والأستاذ النورسي وإن كان متأخراً عن الرعيل الأول وسلف
هذه الأمة في الوجود، إلا أنه ليس متأخراً عنهم في المكافحة والرتبة
فيما تحسب، ولا تتأني على الله.

فقد أكثر الأستاذ في رسائله، وفي لعمه وفي إشعاراته، من
التحذير من ممارسة البدع باسم الدين، ومن التنبيه إلى ضرورة
التمسك بأعذاب السنة النبوية وعدم الخروج عليها. وهو إذ ينه
إلى ذلك يلفت النظر إلى أن التمسك بالسنة النبوية والحرص
الشديد عليها وعلى عدم التسرود عنها، هو ذاب أولياء الله
تعالى وضأن المرشدين الربانيين. يقول رحمه الله في اللمعة الحادية
عشرة: "إن من يجعل اتباع السنة النبوية عادته، فقد حوّل عاداته
إلى عبادات، ويمكن أن يجعل عمره كله متمرناً ومتاباً عليه". ثم
يقول: "لقد قال الإمام الرباني أحمد الفاروقي رحمه الله: بينما
كنت أقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت أن أسطع
ما في طبقات الأولياء وأرفاههم وألطفهم وأسلمهم، هم
أولئك الذين اتبعوا السنة الشريفة أساساً للطريقة". ويعتق
الأستاذ النورسي على كلام الإمام الرباني هذا قائلاً: "نعم إن



الإمام الرباني يحدد الألف الثاني بنطق بالحق. فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتبعها أساساً له، هو أهل لمقام المحبوبة في ظل حبيب الله ﷺ^(١٧).

ومن هذا المنطلق ينكر الأستاذ النورسي رحمه الله على الشيخ محي الدين بن عربي فكرة وحدة الوجود، ولكنه لا يرميه بسببها بكنز أو زندق أو فسوق، ولا يتجاهل سعة علومه وعمق أفكاره وعلو مقامه. يقول جواباً عن سؤال يتعلق بابن عربي رحمه الله: "إنك يا أخي بسؤالك هذا تضطري إلى أن أناقش -وأنا الضعيف العاجز- حارقة الحقيقة وداهية علم الأسرار محي الدين بن عربي، ولكن لما كنت سأحوض في البحث معتمداً على نصوص القرآن الكريم، فسوف أستطيع أن أحلق إلى أعلى من ذلك الصغر وأسمى منه، وإن كنت ذاهباً." ثم يقول: "اعلم أن محي الدين بن عربي لا يتبدع ولكنه يتحدع، فهو مهتد ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبه، فما وآه صديق وضوابط ولكن ليس هو الحقيقة...".

وقد أطلال الأستاذ النورسي في مناقشة أفكار ابن عربي رحمه الله، مترمماً ضوابط اليقظة والأدب دون تزييف ولا الهام له، وأتى بكلام دقيق مقنع يضيئ هذا المقام عن نقله. وبوسعنا أن نوجز ذلك كله في قوله عنه: "ولما كان الشيخ قد انتهج مسلكاً مستقلاً، وكان صاحب مشرب مهم وله كشافات ومشاهدات حارقة، فإنه يلجأ باضطرار إلى تأويلات ضعيفة وتكلف وقسّل لطبق بعض الآيات الكريمة حسب مشربه ومشهوراته، مما يندش صراحة الآية الكريمة ويبرحها.. فالشيخ ابن عربي له مقام خاص لذاته، وهو من المكيولين، إلا أنه يكشفياته التي لا ضوابط لها، عرق الحدود ولجأورها وحالف جمهور المحققين العلماء في كثير من المسائل"^(١٨).

أقول: ولم أجد في شيء من أحاديثه عن ابن عربي رحمه الله، ما يذكره جل المترجمين له من أن الباطنيين دسّوا في كتابه "الفتوحات" كثير من الأفكار الباطنية والعقائد الكفرية التي يتبناها، منهم ابن العماد في كتابه "شذرات الذهب"، وابن لقري في "نفع الطب"، والإمام الشعراني في "البقايت والخواهر"، وحاجي خليفة في "كشف الظنون". وأعتقد أن هذه حقيقة تعلو على الرب والظن. لا أدل على ذلك من أنك لا تجد في فقراته فكرة تناقض العقائد الإسلامية إلا تجد في مكان آخر فيه ردّاً عليها وتحييداً من الأحكام. تأمل في هاتين البيتين من نائتيه تجد أنهما ينطويان على القبحى وحدة الوجود وقران العقيدة الإسلامية المأخوذة من كلام الله وسنة رسوله ﷺ:

وجدت وحداً لم أجد تانياً له
وشاهدت ذاك الحق في كل صفة
وطالب غير الله في الأرض كلها
كطالبا ماء من سراب بقعة

النورسي والثرية الروحية

وبعد، فكلنا يعلم أن الأستاذ النورسي ما إن تجاوز الأربعين من عمره حتى نقص فكره وبديه من السياسة وأحبابها، واتجه في أنشطته الإسلامية إلى ميدان الثرية وتركية النفس ونقد الذات، وافتتح حياته الجديدة بقوله: "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة".

كانت صلته بالناس الذين يرسلهم ويربهم عن طريق رسالته التي يكتبها إليهم تنتشر فيما بينهم، أما هو فكانت تلتفاه السجون سجناً إثر سجن، لا يأتي له -إلا نادراً- الجلوس إليهم والتساؤل معهم. ومع ذلك فقد أثرت جهوده هذه كما لم تتم جهود أي جماعة إسلامية أو حزب إسلامي؛ اتخذ من السياسة سُلماً للولوج به إلى عقول الناس وأسماعهم. ها أتم ترون اليوم ثمار ثريته الروحية والسلوكية، بائعة متجددة على عرض هذا المجتمع وطوله، يبدد ضياع الساطع ما تراكم من ظلمات الجهالة والفسوق والإحاد. وكأنه ضياء أشرق لتلّز أو لكأنها ثرية تلقنتها الأذان والأبواب بالأمس القريب.

فما السرّ الكامن وراء هذه الظاهرة الغريبة التي تبدى في سطور ورسائل وكلمات مضى على توجيهها إلى الناس ما بناه القرن من الزمن؟ السر يكمن في هذه الإصرافة الروحية التي كانت توهجها حياة الأستاذ النورسي. لقد كان هذا الوجه هو الروح السارية في رسالته وكلماته، وكان غيبه مثلاً في ذلك الجهاد الخفي الذي كان يأخذ به نفسه، مراقبة لله، وذكر دائماً له، والتجاء إليه بالأسحار، وملازمة للأوراد التي تصفى القلب في اليكور والأعمال، وإنه للجهاد القدسي الذي كان في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، ثم هذا اليوم اسماً لا مسمى له. ■

^(١٧) كنية الطبرية، حامد (دقيق / سوراب).

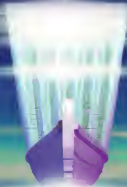
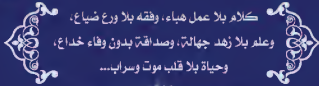
المفوض

^(١٨) التلعات لشع الزمان سعد النورسي، ترجمه: إحسان ماسم الضلحي، ص ٣٧٤.

^(١٩) التلعات ص ١٩٧-١٩٨ في الفتوى العربي النورسي ص ٢٨١-٢٨٢.

^(٢٠) التلعات ص ٨١.

^(٢١) التلعات ص ٥٢ و ٥٣.



أنفاس ظمئنا إليها



إطالة على الداعية المرتقب

إلى هذا الخوهر الذي يقوم عليه كيان الإنسان، ثم إزالة ما لراكم عليه من حشأ كي يتألق من جديد ويبين معدله اللقي النقيس فإن الإخفاقات ستوالي بدون انقطاع.

نعم، "إذا كان الإنسان جزء مهما من هذا الكون فيبقى ألا نسح له بتدبير نفسه وسحق روحه، لأن دمار هذا الخرز المهم من الكون قد يسبب دمارا للكون كله. فمن مسؤولون كوتيا وأخلايا عن هذا الخرز وصيانته من اللبارة، وفي تسمح له بأن تخرج على الشواقي الكوي المدين يدين الله".^(١) ففضبة الإيمان تضبة تعلق بالكون كتعلقها بالإنسان، وإن صلاح الكون بصلاح الإنسان، وفسادة بفساد الإنسان.

الدعوة إلى الله ليست مسألة مزاجية يزولها الداعي قبل أن يبعأ ما فكرنا ونفسنا وروحنا. ومن دون ذلك يمكن أن يؤدي عمله العشوائي والزاخي إلى العكس من المرجو من هذه النهضة النبيلة. فالدعوة "علم وفن".^(٢)

الدعوة علم وفن

فما لم يكن الداعية على علم عميق بالذي يريد قوله، وما لم يكن على دراية بأفصر الطرق الموصلة إلى روح الإنسان فإن الإخفاق سيكون من نصيبه. وإن آمادا بعيدة ما زالت تفصل بين الدعاة وحوهر الإنسان، وإلى هنا يعزى فشل الداعية في كسب المعاطب إلى صف دعونه. فما لم يكن يوسع الدعاة الوصول



الحب والسلام، والحوار والتسامح، ومرح العلم بتحقيق الإيمان، ومواكبة العصر من حيث التطورات العلمية والتكنولوجية، مع أخلاق سامية يشار إليها بالبنان. وربما يكون هذا أسلوباً جديداً غير مسبوق في تعريف الشعوب برسالة الإسلام السمحة. وقد أتت نتاجاً حيث استطاع أن يوصل صوت الإيمان إلى أصقاع قسبة لم تكن قد سمعت بالإسلام وسماحته في شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه وكافة قاراته.

الانفتاح على معطيات العصر

إن الدعوة إلى الله مفتحة على معطيات العصر في العلوم والفنون والأفكار المتنوعة والثقافات المختلفة. وذلك لإكسابها مزيداً من الاحترام في أوساط واسعة من المثقفين والمفكرين في شتى أنحاء العالم. ينبغي على المسلم أن يكون هو الأرقى والأفضل بين العقول، وأن يحتل كرسي الأستاذية التي يرجع إليها في أمور الثقافة والحياة والإيمان، ولا يكون ملكفاً ومنطقاً وبعيداً عن الواقع.

أجل لا شك أن العقلية الحضارية راقدة من روافد تشكيل العقل الدعوي، إلا أنها يجب ألا تستبعد الداعية يوماً، ولا يكون هو سجين نظريات وآراء، بل حراً يقبل منها ما له مصلح إيماني، ويترك ما ليس له مثل هذا المصلح، وهو لا يعرف هذا الصراع المولم بين ما يقرؤه وفكره وبينها عملاً، الفكر عنده هو الحياة، والحياة عنده هو الفكر.

والداعية كتاب مفتوح، كل صفحاته وسطورها مقروءة ومكتنوفة، ليس فيه صفحات مطوية عن العيون أو صفحات مكتوبة بالخير السري. وكما كان رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم سفيراً مفتوحاً بقرؤه من ربه، من تاريخ ميلاده إلى انتفاله إلى الرقيق الأعلى، هكذا تكون حياة أصحاب الدعايات وأفكارهم. حياة كلها تقار لا ليل فيها، وضحي واضح لا لس فيه، وظاهر لا باطن له.

إنقاذ الإيمان

الداعية إلى الله لا يراحم أهل الدنيا على ديارهم وإن يراحمهم. إن الدنيا نفسها لو جاءت تسعى لعرف عنها وأدرك إليها ظهره. إنه مشغول بدفعه، بإنقاذ إيمان الناس. إن إنقاذ إنسان واحد من وحدة الضلال هو خير له من الدنيا وما فيها. وإعادة إيمان غائب إلى قلب إنسان هو أعظم ما يطمح إليه، وإيصال صوت الإيمان إلى أصقاع من لم يسمع به هو غاية الغايات عنده. هذه هي دعوته بعلمها على رؤوس الأشهاد لا يكتم منها شيئاً ولا تخفي منها شيئاً.

ومن ثم على الدعاة أن يعوا هذه القضية كل الوعي بأبعادها الكونية والإنسانية، وأن يرتفعوا إلى مستوى المسؤولية. وذلك بإحصاب أرواحهم وإذكاء أقدانهم وضخ أدهانهم وموازاة حياتهم وتعميق رؤاهم الإيمانية. وأن يدوروا مع الزمن حيثما دار، ويجروا مع الحياة حيثما جرت، ويركضوا وراء الإنسان حيثما مضى، وإلى أي عالم كان اتصافه، وأي ثقافة كانت ثقافته ولغته.

في عصر العولمة هذا، أصبح للعقل الجمعي قوة تأثيرية أوسع وأسرع مما تستطيعه العقول بعهدتها الفردي. فقيادة العالم وإحداث التغيير فيه نحو الأسوأ أو الأفضل، يمكن أن يكون أكثر فاعلية إذا مارست العقول نشاطاتها الذهنية والمعرفية من خلال المؤسسات، سواء كانت هذه المؤسسات علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية أو أخرى.

السكونية والحرية

ليس هناك شيء أكثر خطورة على المسلمين من السكود والاسترخاء والاستسلام للنوم والأحلام. فالسكونية عقوبة روحية تقتل المواهب وتطمح الإنسان وتخنق البطولة وتكتم أفاضل العقيدة. ومنذ مات النازع الحركي في المسلمين، وتوقفوا عن المحركة والانسحاب في أرجاء الأرض حاملين دعوتهم إلى العالم... منذ ذلك الوقت توقفت إبداعاتهم وغاب فهمهم ونجت في أوساطهم إشكالات فكرية موهومة وحصومات مذهبية جدلية، واستعمل بعضهم بعض، وربما قاتل بعضهم بعضاً، متناسين مهمتهم الدعوية الأساس التي يدهم الله تعالى إليها. إن دعاة الإيمان إذا ما ساحوا وهاجروا إلى أي مكان في العالم وضمروا حبلورهم فيه، فإن الضحرة لا بد أن تست عن قريب، وأن تورق وتثمر، وإن تأرجحاً جديداً للإسلام سيداً يتشكل في المكان الذي زرعو أنفسهم فيه. (٣٦)

وهذه طبيعة الإسلام، فالإسلام يأتي السكونية والهمومية ويأتي للحنونية، وقد هاجر المسلمون الأوائل وهم يهرون في العالم حيث يجري هم الإسلام. وإذا كان العالم قد استشرفته اليوم قري العرب وقيمه وسلوكياته اللغوية، وأفرغته من كثير من قيم الإيمان، فإن هذا يفتح على المسلم أن يبادر بنفسه لكي يعيد لإنسان اليوم عمق المثلوية الإلهية في نفسه.

ومن للشطلي حت فضيلة الأستاذ فتح الله كولن رجال التربية والاقتصاد والثقافة وأهل الحمية من الشعوب مرات عديدة وتمناسيات شتى على إنشاء مدارس وجامعات في تركيا وفي مختلف أرجاء المعمورة، وجعلها مراكز للتربية والتعلم، تدعو إلى

التركيز على جوهر الإنسان

قوة ذاتية مستقلة، لكنها مفتوحة على جميع الدوافع، وقوة إدراك عال، غير أنه ملزم بمخاطبة جميع الإدراكات، "وإذا كانت دعوة الإسلام قد غوت وجه العالم القديم، ورسمت خارطة جديدة لفكره الدين، فهي اليوم مرضحة كذلك للقيام بالثورة نفسها إذا ما وجدت ممثليها الحقيقيين".^(١)

الداعية المرتقب

الداعية المرتقب كيان إنساني مشبع لا يتوقف عن بث شعاعه. فكما أن بعضاً من عناصر الطبيعة المشعة لا تستطيع أن تكلف نفسها عن الإشعاع، وكما أن الشمس لا تستطيع التوقف عن إرسال ضوئها إلى الأرض، والقمر لا يقدر أن يرمم قليل من نوره، هكذا الإنسان الداعية لا يمكنه أن يمس نوره عن الآخرين أو يستر ضيائه عنهم، لأن الدعوة طب يشعل ذرات دمه، وضيائه يروج في حنايا ضلوعه. فهو يصنيء في أي مكان يحل فيه أو يرتحل عنه.

فلو افار الكون فجأة، وتناثرت كواكبه، واصطلعت أجرامه، وسقطت السماء على الأرض، وكادت القيامة تقوم وفي يد الداعية فسيلة نور، فإنه يبحث عن قلب يروخ فيه فسيلته قبل أن يغلق العالم رمادا تلروه رياح العدم. ولأن العطاء عنده صار طبيعة وسجية فهو لا يستطيع أن يتوقف عن العطاء، كما لا يرجو سوى مرضاة الله تعالى أجراً. لذا فإن دائرة مستمعيه في اتساع، وصوت دعوته في ارتفاع.

دعاة الإسلام الحق إحوة البشر وأشفاء الإنسان، لأنهم يحثون سبب إلى كل قلب، يرثون للأرواح السليمة من البور، وللقلوب المحلنة من فخر اليقين، إنهم أطباء القلوب، وكما تتحسن الحياة من الموت، هكذا ولمسة منهم تنفخ الحياة في موتى القلوب. لذلك صاروا مائة يؤمهم أحم العفري من أجيال الناس طلبة للشفاء والتشفا. هؤلاء هم الدعاة العالون العاملين، أما أولئك الذين يعطون ولا يعملون فإنهم كالثقوب السوداء لا تعكس بورا إلى شيء.

إن الداعية المثالي بطل ثالث الحائز متماسك النفس قوي الإرادة، صاحب رصانة علوية، يبيل الفكر والروح دائم التورب، لا ينفك حماسه، ولا يطفئ وحده، لا يعا ولا يكل، في روحه تسكن أبعاد أمة وتاريخ إيمان وفجر الأبد ويؤمن بالخلود. إنه عالم متين من القوة التي لا تعرف الضعف والاهترام، تبيض قلبه بالرقعة على أولئك التائهين الضالين من بي الإنسان، وعلى وفرة روحه ورحابة فضله

إن معاطة اختلاف الروحي والخبذ الفكري لدى المسلمين هو من أبرز مهماتها. وجهلنا بالإنسان يجعلنا نلق حائرين تجاهه، ومن ثم علينا أن نتم بالدراسات التي تعمل على كشف أسرار الإنسان ظاهراً وباطناً، ونضع الدعاة على التخصص بها لكي تتوفر للدعوة معلومات عن كسوبة الإنسان وكيفية التعامل دعوا معها، والتعنى في حقيقتها. لأن الفوضوية الروحية تحتاج العالم اليوم وتستلر العطف والإشفاق من أصحاب العيرة على الإنسان. إن سر قوة الدعوة هو في تطابقها مع قوانين النفس البشرية. والدين ستموا من التحليل حول جيف الدنيا سيجدون في أحوالها ما يتوقن إليه من الطهر والنقاء، وأصحاب الذهنيات المعقدة والنفس المحترقة سيرون واحتهم اليهود في إقيلها. أما أولئك الذين يتهيبون الإسلام ويخافون منه فيملسون ألا شيء أكثر أمناً وأماناً وسلاماً من الانسحاب إلى جهاء، وأن المعرفة كل المعرفة فيه، وأن من لا يعرفه فإنه لا يعرف في الحقيقة شيئاً. وسكارى الأحرار ومسحوق الأرواح سيجدون في صيدلية هذه الدعوة اليسم والشفاء.

إن الدعوة كلها دعاء، وليست شيئاً آخر غير الدعاء. دعاء بلسان الحال أو بلسان المقال. وبين الحال والمقال ترتفع الليالي متفلة بالتهجدات، موقرة السمع بالضرعات، نصاحة بلنع القلوب، صراحة يوحد الأرواح. وركب الدعوة بمضي في طريقه مشرقاً أو مغرباً يفرده صواب اللطف، وتحدوه قطرة الحكمة، وبأية المند الإلهي من كل جانب، وتواكه العناية الربانية حيثما مضى وأنى ألقى عصا ترحاله.

فالداعية يملز من الملاك الروحي اللطيف، والسقوط في هاية الانحلال النفساني الداخلي. إنه لا ينفك يدعو أولئك الذين يربطون الخروج من مستنقع الوحل ولكنهم لا يعرفون السيل إلى ذلك، إنه يدعوهم إليه لينخرطوا في صفوف الإيمان.

الحوار مع الآخر

إن سر الدعوة يكمن في غلايتها ووضوحها وعموميتها، وفي المرونة التي توصلها لمحاورة الآراء والأديان والثقافات المختلفة، لتكشف ضم عن حقيقة رسالتها، وتريل التساؤلات التي تثار حولها، وتعر عن ذاتيتها بنفسها، ولا تدع لأحد مجالاً للشبهة صورها.

إن الدعوة كائن روحي في إهاب بشري، شخص معوي



عدم التواضع، صوامع اللسان إلا عند الضرورة، لا يثر ضججاً، ولا يقيم مناجاة، لا يتصنع ولا يتشكى، إنه يدور مع القدر حيث دار، ومع القدرة يستمد منها القوة، ويطلب منها المدد.

يقول صاحب كتاب طرق الإرشاد في الفكر والحياة: "اعلموا أن العرب لن يستجيب لدعوتكم إلا إذا وجد أمامه أساساً تفسر قلوبهم حزناً من أجل خلاص الإنسانية، وإشفاقاً عليها... أساساً يعضون ألبانهم بالهجد والقيام لله، وألسهم رطبة بذكر الله، لا يهدرون لركت عطاء بل يعضونه بما يلبد البشرية وينفعها، أجل، العرب لن يسلم روحه إلا أساساً مشحونين مثل هذه الطاقة. فإذا أصبح يملأ الإسلام على هذه الشاكلة، تسهرح العربون إلى الإسلام ويدخلون في دين الله أفواجا، ولكن، والحالة معكوسة، فقد تجلت النتيجة معكوسة أيضاً".^{٩٩}

إن عظماء الدعوة مشغولون دائماً بأقدس الأفكار وأطهرها. "فهم يعلمون جيداً أن المسلم عنصر أساس في نظام العالم، فكما لا يمكن الحديث عن النظام في عالم خال من المسلمين، كذلك لا مجال للإرهاب والفضوى في أماكن يوجد فيها المسلمون. وهذا متوط بأداء المسلم وظيفة التبليغ والتشيل حتى الأداء".^{١٠٠}

فهم يراقبون أنفسهم ويسارعون في تزييم ما ينهار من عزائمهم وما يتصدع من إراداتهم بالجوء إلى كتاب الله والاستمداد من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختراقهم الروحي ميزة عالية يجذب إليها من يرى فيها استعلاء على تفاهات البشر، وعلائقهم الحميمة مع "جنس الإنسان" تفتح لهم منافذ الاتصال بالعالم. وما يلاقونه في سبيل الدعوة من عقبات صغيرة كان أو كبيرة لا تثبط همهم ولا تقتل رجائهم.

إنهم أذكيا القلب شهامة الأخفة، على قلوبهم منونات نورانية من عالم الغيب، فقلوبهم في جيشان دائم لا يتوقف، وصبرورهم تطوي على رغبة في اعتناق كل البشر. إنهم بشريون حقاً ولكنهم في قلوب ملائكة، وأدميون ترائيون، إلا أن أرواحهم تسبح في الملأ الأعلى. ■

شجرة الإخلاص

لا تتكلم قليل أن تقمس لسان قلبك
بريح زوئك لتهاقت عليك الضمائر
تهاقت القراش على رحيق الزهر،
وكم من القلوب ستغسل بأضواء قلبك
عندما تورق شجرة إخلاصك...

^{٩٩} كتاب وناسخ تركي

^{١٠٠} نقاوي

^{١٠١} طرق الإرشاد في الفكر والحياة، تأليف: د. جعفر كوكري، ترجمة: إحسان

عاصم السامي، دار البطل للطباعة والنشر، ص ١٠٣ وما بعدها.

^{١٠٢} المصدر السابق.

^{١٠٣} الدكتور يوسف القيقون، جعفر كوكري، كتاب لم يترجم بعد، ص ٦-٧.

^{١٠٤} انظر طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص ١٨٥-٢٠٨.

^{١٠٥} المصدر السابق، ص ١١١.

^{١٠٦} المصدر السابق، ص ١١١.



الضاربون في الأرض

✦ أدب إبراهيم الدباغ ✦

ش

شباب أظهار، ذوو قلوب قية نابضة بالإيمان، ولزومات شجاء، وعزائم لا تعرف المستحيل، يقود عظامهم إلى فجاج الأرض شوق مبرح، ويأبى حاسهم لكر دعوى إنداعي، ورواية قباضة بالوضوح، وحدة في البصر والبصيرة... أعدوا كتاب الله بقوة، وحشوه إلى صدورهم وكأنه عليهم ينزّل، وإياهم يخاطب، يحرصون عليه حرصهم على ماء عيونهم، ويرومون إيصال رسالته إلى أيّ إنسان في أيّ مكان من العالم، حتى لو عاشوا إليه أشد الحيار نأياً واستبحاشاً، أو جابوا إليه قرارة الكون، أو غاصوا إليه طبقات الأرض، أو امتلأوا إليه ألباق السماء... معهم مدرسة ينشئونها، وكتاب يدرسونه ويدرسونه، وقلم يُعلمون به ويتعلمون منه. إذا ما رأيتهم في حومة الفكر أو العمل، وهم يشغون عن روح مشرق، وقلب وضأ، وفكر عصب.. لك أنّ تصال: أهمّ الأداء صاوية منهلة على عطش الأرض، وجذاب الحياة، أم هم جنس إنسان جديد غير هذا الجنس، انشقت عنهم أرض غير هذه الأرض، أم قللت بهم أمواج الغرب على شفاف الدنيا لكي يشاركون في إصلاحها قبل أن تعطرش وينقلب عليها سافلها.

أما البؤساء المقتولون بالألغام والدموع والدعاء فهم يرقبونهم من بعيد، رافعين نحوهم أفرع الصراخ، ومعهين عن شوقهم للقياء، ومنظرين بهم الآسية، وروحهم المراسية، وقلوبهم المغري، وتدهام الحائط على القلب القاحل، والنفس اليابسة، والذهن الناقص. يلهم طاقة إيمانية كبرى أحسبها لو سلطت على جبل جعلته دكاً ولحزّ شعفاً.

إنهم إيدياعون ابتكاريون، غير تقليديين، قادرين على تجديد فكرهم الدعوي بين يوم وآخر، وفي ذهنهم دائماً السؤال الملح: هل من المحلل أنه على الرغم من كل التجارب الدعوية التي عرفناها وعرفها الدعوة منك قرنين من الزمن فإننا ما نزل نعاين من السطحية والضيائية في الذهن والعمل؟! وهل من المحلل أننا قد أعطينا فهم تاريخ العمل الدعوي وقصرناه على نقاط تقليدية واحدة ولم نحاول التجديد فيها، وهذا هو الذي يسبب لنا اليوم الكثير من الإحباط؟! أجل إن ذلك قد يكون محتملاً.

وكما يضرب هؤلاء الفتية في الأرض - ككل الأرض - لا يقتلهم شيء، ولا يحول بينهم وبين معيادهم حائل، فإنهم يضربون كذلك في "النفس البشرية" ويطلقون وراء أشد تحوم النفس غلماً، وأكثرها رعاً واستعصاء، حيث تصارع في الأعماق هبات من لا "أنا" ليصالحوا بينها، ويسفروا الأمن والسلام في أرجائها، ويسلكوا لها غير "لمعرفة القرآنية" التي تسوّي جميع صراعات الإنسان مع نفسه ومع تكون ومع الله تعالى.

إنه الإصلاح العقلي والروحي الذي يشده هؤلاء الفتية لأنفسهم وللآخرين، وهم في الرقعة نفسه يسفرون بطريقة جديدة للحياة يتعاون فيها "العقل القرآني" - إذا صحّ التعبير - مع جذّة التجربة، وشدة المعاناة التي تنجي الإنسان من السطحية والتفاهة، وتشعره بتدسية الحياة من حيث كونه امرأة واسعة تعكس المفهوم القرآني في إنجارتها، وكونها آية من آيات الخلق والإنجاد.

والدعاة من هؤلاء الفتية سهل هنّ آين، لا يبي حول نفسه حداراً عقلياً أو نفسياً، ولا يحيط نفسه بمائة لعمدة لا يستطيع الآخرون أن يتغذوا منها إليه، بل هو على استعداد دائم ليقول الآخرين والاستماع لأرائهم والإفادة من تجاربهم بكل صدق وحيمة، وهذا هو الجانب الأخلاقي المطلوب من كل داعية يتصدى للدعوة إلى الله. ■





الهجرة

مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة

✦ أ.د. عبد الحليم عويس ✦

ع

تلك العصبية للمستعيلة التي تعرف منطق القوة، ولا نعرف منطق الحق، وليس في وعيها ولا في قاموسها أن لحادن الإيمان، وأن تترك مساحة للتعاظم والحوار، وبالتالي تصبح الحياة معها - بعقيدة إيمانية بعيدة عن إشعاعاتها - أمراً مستحيلاً.

إننا نريد أن يفهم مضمون الهجرة الإسلامية كما ينبغي أن يفهم، وأن تكون هجرة الرسول هي المرجعية لهذا التفهم. فقد بُعث محمد ﷺ "رحمة للعالمين"، فكيف تكون إذن رحمته بالقوم الذين اتسبب إليهم، أو بالقوم الذين عاش معهم، أو بالأرض الطاهرة التي نشأ فيها، وفرت في سطاحتها وتلسم عبرها، وشاهد جموع الزاهقين إلى أرضها الطاهرة من كل فج عميق؟

إن رحمته -بالضرورة هنا- لا بد أن تكون أكبر من أي رحمة أخرى... ولذا فراه ﷺ يرفض دائماً أن يدعو على أهل مكة، وحتى وهو في هذه اللحظة البالغة الصعوبة، عندما وقع في حفرة حفروها له في موقعة أحد، وفأوشته سهامهم من كل مكان، وسالت دماؤه الطاهرة على جبل أحد الذي كان يجادل الرسول ﷺ الحبيب معه، لأن بعض قطرات دماؤه الزكية قد احتلظت برباب أحد الطاهر، فأصبحت حبيبتين... حتى في هذه اللحظة البالغة الصعوبة لم يستعجل لسانه الركي، ولا قلبه النقي أن يدعو عليهم، ولا أن ينكثهم إلى الله، وإنما كان يردد على مسمع من الناس خبيئاً: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" (رواه عنه). وعندما كان يرى ثمادي فريش في الحرب كان ينأسف عليهم ويقول: "يا ويح فريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلو؟ يعني وبين سائر الناس" (رواه الإمام أحمد في مسند).

عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قلبه نراب مكة ولا الكعبة المربعة في قلب مكة، ولقد أعلن ﷺ ذلك بعبارة صحيحة عندما التفت إلى مكة وهو يودعها قائلاً: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ" ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت حولك". (رواه الترمذي)

وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قريباً ولا بين هاشم، فلقد كان يحب الجميع ويحبهم شدة الشداية والخير، كما أنه -وهو الولي- لم ينس لبني هاشم -مُسلمهم وكافرهم- مواقفهم معه عندما لاذهم عصبية الرحم لحنوه من كل القبائل، ودخلوا معه شعب أبي طالب فماسوا معه ومع المسلمين الخوع والفاقة، ولا يمتون عليه بذلك، مع أنهم على غير دينه، لكنه الولاء للأرحام.

هاجر عليه السلام ولكنه لم يهجر

فالرسول المهاجر ﷺ لم يهجر كل ذلك بل حمله معه في قلبه، حتى إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه إلى مراتع الصبا، وإلى الرحم الذي وقف معه حتى قال قائلهم وسيدهم أبو طالب: "أذهب يا ابن أخي! فقل ما شئت فقلنا لن أسلمك أبداً"، مع أنه لم يكن على دينه.

وإنما كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة هجرةً للوثنية المسيطرة التي لا يريد أصحابها أن يتعاملوا بمنطق الدين أو منطق العقل أو منطق الأخلاق. فهذه وثنية يجب أن تشر وأن يهاجر من مناطل نفوذها وإشعاعاتها.

وإنما هاجر الرسول، وهاجر -إلى حايث الوثنية المسيطرة-



من بلادكم -لأى سبب من الأسباب- لا تعني القطيعة مع أرض الوطن، ولا مع الأهل والعشيرة، ولا مع المسلمين في أي مكان، مهما تكن الخلافات الظرفية الظاهرة معهم، بل يجب أن تبقى الصلة قائمة بينهم وبين الأهل والقبوم، بمدونهم بأسباب الحفاظ على الدين من موافقكم، لكي يبتوا ويمتدوا وإشاعات الإيمان إلى أكر مدى ممكن، لاسيما ووسائل التواصل الآن في أقوى مستوى عرفته البشرية، وبالتالي تكونون قد وصلتم الرحم، وجمعت بين الثلاثة الشكاملة التي مثل بأركانها الثلاثة وحدة لا تنقسم، وإلا فقدت الأمة "مكانة الخيرة" التي رفعها الله إليها عندما قال: ﴿كَتَبْنَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْوِيلُونَ بِالْمُتَّعَرِّفِ وَكَلَّهُونَ عَنِ الشُّكْرِ وَأَوْفُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠) إنما ثلاثة الإيمان والشجرة والجهاد.

أجل! في عصرنا هذا يجب أن يعود معنى الشجرة إلى معناه النبوي، فليست الشجرة حبراً للوطن، وقطعة تاريخية أو معرفية معه، بل هي حجرة موصولة بالماضي، تعمل على تعميق الإيمان فيه، وتبني قلاعاً للإيمان في المهرج الجديد، وتصل بين الماضي والحاضر والمستقبل أصلاً من درس الشجرة النبوية.

التواصل مع ضاحي المهاجر مطلوب

إن الحرية التي تريد أن تفتح بها في مهرك، والبروة التي تريد أن تكونها، وحتى الدعوة التي تريد أن تبليها -إن كنت ممن اصطفاهم الله للدعوة والبلاغ-... كل هذه تدفعك إلى التواصل مع لماضي من حبيب، وتدفعك إلى بناء حقائق للإيمان بفتح عطرها في ضحك الجديد، ولذلك الجديد، من حبيب آخر.

ليكن معنى الشجرة واضحاً وقريباً، فهي ليست حجرة من أرض ولا أهل إلى أرض وأهل آخرين، بل هي حجرة من قيم شجرة ضاعطة تكبل حركة الإيمان، وتفتح الضمائم المستمر، وترفض الحوار بين الأفكار والعقائد، إلى قيم أخرى تسمح لأشجار الإيمان أن تنمو، وتسمح بالتفاعل والتجاوز، ومواجهة الرأي بالرأي، والخجة بالخجة، وتكون مؤهلة لأن تفتح لأهل

وكم راودته الخيال الشيم -بأمر من الله- أن تطبق عليهم فكان يرفض ويقول: "أزجو أن يخرج الله من أصلابهم من يبعده الله وحده لا يشرك به شيئاً" (سورة آل عمران). وعندما جاءه فرصة السلام معهم أصرت عليها، مع تعليمهم في الشروط تعلقاً أغضب أصحابه، لكنه كان يريد لهم الحياة، وألا تستمر الحرب في أكلهم، وألا يبقوا -وهم قومه وشركاؤه في الوطن- مشتمرين في تاليب الدال على لدرجه أنهم أصحوا العطف الكأداء في طريق الإسلام، مما يقرض عليه يأمر الله الجهاد لإزالة هذه العيبة، وشرح الرسول في إزالة عيبهم يقول شروطهم المحضفة، حباً لهم، وحفاظاً على قبالهم، وأيضاً لإفساح الطريق أمام دين الله.

أما حين دخل مكة ﷺ فاشاء فقد حافظ بكل قوة على كرامتهم ودمالهم، ولم يقل مجرد كلمة خرجت من فم سعدى عبادة ﷺ -أحد الصحابة والقادة الأجل- وذلك عندما قال: "اليوم يوم للحنّة" فنزع الرابطة منه، وأعطاه لانه قيس وقال: "لا، بل اليوم يوم الرحمة، اليوم يمر الله بربنا" (١).

وعندما استسلمت مكة كلها غاماً، وقف أهل مكة يعظمون حكمه فيهم مستحضرين تاريخهم الظالم معه، لكنهم سرعان ما تذكروا أنه الرؤوف الرحيم الطاهر البريء من رعبات الانتقام أو المعاملة بالمثل. فلما سأله: "ماظنون أني فاعل بكم"، قالوا: "أح كرم وإن أح كرم"، فرد عليهم قائلاً: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٤)، وهي كلمة لي الله يوسف ﷺ التي قالها لإخوته، ومنها نذكر أنه احتبرهم جميعاً إخوانه، كآلهم إخوة يوسف ﷺ، لم أعلن العفو العام بللك الحملة الخالدة: "أذهبوا قاتم الطفلة لوجه الله تعالى" (٢). فكانه أظنهم من الموت الزؤام عليه الصلاة والسلام.

دعوة للمهاجري العصر الحاضر

وقول للمهاجرين من أبناء عصرنا لظروف مختلفة إلى أي بلد من بلدان العالم: هذه هي حجرة رسول الله ﷺ بين أيديكم، وهي كتاب مفتوح، فأمنعوا الفرية فيه لتدركوا منه أن هجرتكم



الإيمان والحق أن يعملوا كما يريدون، وأن ينوا قلاع الإيمان في النفوس عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

إن المحرة النبوية الإسلامية هجرة بضد لها كسر القيود التي تفرض على الإيمان، وفتح نوافذ أخرى في أرض جديدة. وليس الهجرة الإسلامية أبداً من تلك المحرات التي تعني زحفاً على البلاد على حساب أهلها، أو لتحقيق الثروة ثم الخروج لها، أو للاعتماد عليها تظهر أصحاب البلاد الأصليين، وحلهم محرومة متخذين وأدوات لشروعات وطموحات المهاجرين إليهم.

فاشجرة الإسلام اليوم - إلى أي بلد في العالم - يجب أن تكون هجرة تسعى إلى التواصل والتعارف والتناحر واخفاء بحيث يشعر كل الناس أن الأفراد المسلمين أو المجموعات الإسلامية التي تعيش بينهم إنما تمثل روحاً جديدة، نية ولا غم، وزرع الخير، وقاموس البشر، ولا تعرف التفرقة في ذلك بين المسلم وغير المسلم، والوطني، والوافد، والأبيض والأسود.

وكل ذلك لن يحقق إلا إذا رأى الناس في المسلم للمهاجر إليهم - من خلال أقواله وأفعاله، وإسهاماته الخيرية، وآفاته الخيرية، وعبوديته لله - شخصية متميزة جادة تفعل ما تقول، وتعيش معهم حياتهم اليومية، وأماطهم، والأهم، يعيش مع الحق وال نور، ظلالاً وعقوداً، كأنه بعض ذاته، وكأنه مرآة فيه، وصدى أخلاقه، وأثر منهجه في الحياة.

وهنا يسأل الناس من غير المسلمين: من أين شذا للمهاجر كل هذا الخير والنور؟ من أين له هذه الإنسانية المتدفقة؟ ومن أين له هذه الرحمة التي نعم الإنسان كل إنسان، بل والحيوان والنبات أيضاً... فيسبغون خضاً إلى الإجابة الصحيحة، وهي أن هذا الإنسان يرثف من لبغ الألباء، ويستمد وعيه اخضاري ومشروره الإنسان الرحيم من لبيته وإمامه، وإمام المسلمين الأعظم، بل وإمام الإنسانية محمد ﷺ.

فقد كانت هجرته المباركة روحاً جديدة، غير عنها أحد

الصحابه الكرام (أسس من مالك ﷺ) في قوله المعروفة التي ذكر فيها أنه عندما دخل الرسول ﷺ للدينه بعد شاح هجرته: "أضاء منها كل شيء، وعندما مات ﷺ أعظم فيها كل شيء". وهذا على العكس من مكة التي تسلسل منها المسلمون هارين يدينهم، فأظلم فيها كل شيء، ولم يبق فيها إلا الطغيان، والفساد إلى الحرب. فلما فتحها الرسول ﷺ أضاءت فيها النور، وأضاءت الكعبة، وجاء الحق ورهق الباطل، وأصبح مكة قلعة الإسلام الأولى.

إن هذا المعنى للهجرة يجب أن يبقى فوق كل العصور، لأنه اتصل بين الرحمة في كل العصور وكل الأمكنة، وأصبح - بالمقابل - صاخاً لكل زمان ومكان، صلاحية كل حقائق الإسلام المتأبدة. ولئن كنا نؤمن بأنه "ألا هجرة بعد الفتح" (س:ع:م) كما قال الرسول ﷺ، فإننا يجب أن نؤمن في الوقت نفسه ببقية الحديث، وهو قول الرسول: "ولكن جهاد ونية". وهذا يعني أن الهجرة بعد مرحلة الهجرة الأولى قد أخذت بُعداً اصطلاحياً جديداً. ففي البدء الأول كانت الهجرة مرتبطة بمكان هو للدينه، ولكنها بعد ذلك أصبحت مطلقة من المكان، فهي إلى أي مكان شريطة أن يكون "الجهاد والنية" هما الهدفان للغروب في النفس. فهما - أي الجهاد والنية - قد انفصل عن قيد وحدة المهجر (الدينه) الذي كان في صدر الدعوة، وأصبحا صالحين في كل العالم يعيشان مع رجال الدعوة والبراع، وبمضمان سلامة الأعمال وارتفاعها على المنافع الاقتصادية أو الظروف السياسية.

الهجرة والتكافل الإسلامي

وعندما يستقر هذا المعنى في النفس نستطيع أن نطمئن إلى أن أبطال الدعوة والبراع سينشرون في كل مكان يحملون فيه حديده جديدة للإيمان، وتاريخاً جديداً يبدأ كأشعة الشمس في الصباح، ثم يساهب عبر كل زمان ومكان مطلقاً إلى مساحة جديدة في الأرض. وعلى المسلمين إذن - عندما يكونون في أرض المهجر - أن يسارعوا إلى الانضمام إليهم، وتكون مجتمع إيماني يقوم على

القلب اليقظ

ما أعظم القلب اليقظ،
إنه يرى في كل شيء آية وعلامة؛
في القطرات الماطلات،
وفي الألسنة الصامتات،
وحق في الأحجار الجامدات...
يا ويحك إذا غفل قلبك،
تبقى سجين ذنباك.
ويقلب ربيعك خريفًا حزينًا،
ونسيمك عاصفًا مدمرًا،
فاتنظر عيدهما الطوفان...

"اللواساة" التي ترفع فوق الأخوة، وهي مستوى خاص فوق أخوة الإيمان التي هي مستوى عام، وأن يتكاملوا مع بعضهم تكافلاً مادياً ومعنوياً، صفيقاً لقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (البقرة: ٢) وقوله أيضاً ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (البقرة: ٣).
والتكافل "المادي" يعني التعاون على ضمان الحد الأدنى المطلوب للحياة لكل أخ مسلم، طعاماً أو شرباً أو علاجاً أو تعليمًا أو كساءً. والتكافل "المعنوي" هو التعاون على ضمان التزام "الأخوة" في الإسلام بأداء "الفرائض" والبعد عن "المآثم"، وفعل ولطفه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار البيئة التي يعيشون فيها وبالأصناف المناسبة لها. وعليهم أيضاً أن يبنوا "مسجداً" يضم الرجال والنساء والأطفال، مهما يكن مستواه متواضعاً. فقد حثّنا الرسول ﷺ من وجود عدد -مهما يكن قليلاً- من المسلمين لا تقام الجماعة فيهم؛ كما أن "المسجد" سيكون محور لتأليفهم وتعارفهم وتكافلهم المادي والمعنوي. ومن المسجد يتطلعون إلى صور من التكامل فيما بينهم تأخذ طابعاً علمياً ومؤسسياً تجعل لهم قيمة وتأثيراً وإشعاعاً في مجتمعاتهم الجديدة.
لقد أهدونا الرسول ﷺ أن مما فضل به على طلبة الأنبياء أن الأرض جعلت له مسجداً. وقد حقق المسلمون السابغون العظماء "مسجدة الأرض" في كل الأرض التي هاجروا إليها، فهل يمكننا أن نتأسف للسيرة ونحذوا حذوهم.
لعل الأرض تنخلص من القيوم السوداء المثلثة وتعود مسجداً طهوراً. ولعل الله يهدي أيدنها وأيدي المستحقين من بعدنا ثمراً حديثاً للإيمان، ولاربعاً حديثاً لتعاقب فيه راية الوحي مع العلم، واخفق مع القوة، ويسود العدل الشامل والرحمة المحمدية العالمية كل الكون... وما ذلك على الله بعزيزاً ■

٢٩ أسدادة فائز وخمسة عشرة مشاركة إسلامية / مصر

الطوائف

٣٠ الاستيعاب لاس عبد الو، ٩٧/٢

٣١ سنن أبي داود، ١١٨/٩



مأساة الأندلس وموقف العثمانيين

أورخان محمد علي*

للأسان القضاء على آخر دولة إسلامية في الأندلس وهي دولة بني الأحمر في غرناطة والتي كان يحكمها آنذاك أبو عبد الله محمد وامتدت مدة حكمه عشر سنوات (١٤٨٢ - ١٤٩٢ م).

العثمانيون والانتصار للأندلس

والحقيقة أنه كان من المتوقع انتهاء حكم مسلمي الأندلس قبل هذا التاريخ عنات الأعوام لولا المساعدات الخارجية التي كانت تأتيهم من الدول الإسلامية في شمالي أفريقيا. فقد قامت دولة "المرابطين" بتدخلهم ضد "الفاطميين" الساسيين ملك قشتالة، ثم جاءت مساعدات دولة "الموحدين" بعد ذلك وبعثت أسرة الموحدين في الأندلس حتى انتصار الفاطميين الذين غلبوا عليها في معركة "نافاس دي طولوسا".

ولكن الوضع تغير في أواخر عمر دولة بني الأحمر في غرناطة، فلم تكن هناك دول إسلامية قوية في شمالي أفريقيا، بل دول ضعيفة، وفي أحيان كثيرة دول متعاونة مع الإسبان والفرنسيين

هناك أسئلة حائرة تقول في أذهان العديد من المسلمين في العالم العربي حول التاريخ العثماني ومن أهمها سؤال: "ماذا لم تقوم الدولة العثمانية بمساعدة مسلمي الأندلس عندما داهمهم الخطر الإسباني الماحق؟ ألم يكن في وسع الدولة العثمانية -وهي في أوج قوتها- التدخل دون وقوع تلك المأساة المروعة لمسلمي الأندلس. لتتناول هذا الموضوع بإيجاز.

من المعلوم لدى الجميع أن غرق المسلمين في الأندلس إلى دول طوائف أصغرهم، وأن العديد من حكام هذه الدول الصغيرة بدأوا يستمعون بالإسنان صد الحكام الآخرين من المسلمين، وهكذا بدأت القصة الأليمة لأقول خمس الإسلام من سماء الأندلس. وبينما كان المسلمون عارلين في خصم العرق والشنات، خطا الإسبان خطوة مهمة في مصار الوحدة عندما تزوج "فرديناند" ملك أراغون من "إيزابلا" ملكة قشتالة، وأصبح الهم الوحيد

هر



مثل دولة بني حفص في تونس والمريتين في المغرب. كما قام الأسبان بسد مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي وحدة من مسلمي شمالي أفريقيا إلى الأندلس. فلم يبق أمام مسلمي الأندلس سوى الاستنجاد بأقوى دولتين إسلاميتين آنذاك وهما الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، ودولة المماليك في مصر، فأرسلوا وفدا لكل منهما طلبا لتجديدهم.

الوفد الأندلسي في إسطنبول

وصل الوفد الأندلسي إلى "إسطنبول" عاصمة الدولة العثمانية التي كان على رأسها السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح، وقام رئيس الوفد بتسليم رسالة استغاثة مؤثرة حفظها التاريخ من مسلمي الأندلس إلى السلطان، تورد هنا مقتضاها:

"الحضرة العلية وصل الله سعادتكم، وأعلى كلمتها، ومهدد أقطارها، وأخر أنصارها، وأذل عدائها. حضرة مولانا وعمدة دينا وديانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وسلطان الإسلام والمسلمين، قانع أعاده الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيي العدل، ومصفى المظلوم من ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنة وفرضة، ملك الترين، وسلطان البحرين، حامى الدمار، وقامع الكفار، مولانا وعبدنا، وكهفا وعيشنا، لا زال ملكه موقور الأنصار، مقروبا بالانتصار، عتد المائر والآثار، مشهور المعالي والفحار، مستأثرا من الخساست بما يضاعف الأحر الجريل، في الدار الآخرة والثناء الحميل، والصر في هذه الدار، ولا رحمت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد، وبجدة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السبع والضفاح، وأكسنة السلاح ناذلة تغاسل الدحائر في المواطن التي تألف فيها الأحرار مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبل القافرين رضا الله وطاعة يوم يقوم الأضهاد".

وكان هناك مع هذه الرسالة آيات طويلة من شعر مؤثر للشاعر أبي البقاء صالح بن شريف يصف مأساة المسلمين في الأندلس وغدر الأعداء بهم:

سلام عليكم من عبيد تخلفوا
بأنفلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الردم زاحر
وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم
مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من ضيوع تفرقت

شيعتهم بالتلف من بعد عزة
سلام عليكم من وجه تكشف
على حملة الأعلاج من بعد ستر
سلام عليكم من بنات عواتق
يسوقهم البساط فهرا لخلوة
سلام عليكم من عاتق أكرهت
على أكل خمرير ولحم حيلة

وبعد هذه المقدمة المؤثرة تشرح القصيدة غدر الأعداء الإسبان وكيف يقومون بتصفير المسلمين فهرا وجوا وكيف أن المسلمين جاهدوا ولكنهم قلة أمام جموع الأعداء:

غُدرنا وتُصَرِّنا وتُؤَلِّ ديننا
طُلمنا وعمولنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد
تقاتل عمال الصليب بسية
ونلقى أمورا في الجهاد عظيمة
بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا الروم من كل جانب
يحد وعزم من حيول وعدة
فكنا بطول الدهر بلقى جموعهم
فقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانها تزداد في كل ساعة
وفرساننا في حال نقص وقلة
فلما ضعفتا خيموا في بلادنا
ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وحاربوا بأنفسهم عظام كثيرة
تهدم أسوار البلاد المتبعة
وضربوا عليها السهمار بقوة
شهورا وأياما يحد وعزيمة
فلما تقاتل خيلنا ورجالنا
ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا
أحطناهم بالكثرة خوفاً قصيبة
وخوفاً على أبنائنا وبنائنا
من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا
من الدجن من أهل البلاد القديمة



بفرض ضريبة على الخجاج العثمانيين. وفي عهد السلطان بايزيد الثاني أبدى الماليك رعيتهم في ضم منطقة "خوقور" أوه" العثمانية إلى الأراضي السورية التي كانت تحت حكمهم. كما حدثت مشاكل أخرى بين الدولتين لا تنطرق إليها هنا. والخلاصة أن الوفد عندما جاء إلى السلطان كانت الجيوش العثمانية في حرب مع جيوش للماليك التي تقدمت فعلا إلى منطقة "خوقور" أوه".

مشكلة الأمير "حَمَّ"

كانت الدولة العثمانية تعيش مشكلة الأمير "حَمَّ" (الأح الأصغر للسلطان بايزيد) الذي حق عصا الطاعة على أخيه السلطان مطالبا بالعرش لنفسه. وحدثت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار السلطان بايزيد وهرب الأمير حَمَّ إلى مصر حيث استقل من قبل حاكم مصر تغلقو، وكان هذا عاملا مضافا لزيادة التوتر بين البلدين مما أدى إلى إضعاف قبيل الحرب بينهما. ولم تلب مشكلة الأمير حَمَّ بأحداث التوتر بين هاتين الدولتين بل إلى الأمر حم عندما أمر من قبل الفارصة وهو على ظهر سفينة وتم بيعه إلى البابا، أصبح ورقة تهديد في يد الدول الأوروبية والبابا ضد الدولة العثمانية، وأدى إلى توتر العلاقات بين الدول الأوروبية وبين الدولة العثمانية، وإلى تحالف صليبي جديد من البابا "جوليس الثاني" وفرنسا والمجر وجمهورية البندقية ضد الدولة العثمانية مما حدا بالدولة العثمانية إلى تركيز اهتمامها على الخطر القادم إليها من أوروبا.

خطورة الدولة الصفوية

كانت الدولة الصفوية تحاول نشر المذهب الشيعي في الأناضول وترسل للئات والآلاف من شباب التركمان الشيعة -بعد تدريبهم- إلى الأناضول لهذا الغرض. وكانت نتيجة هذه الجهود حدوث حركات عصيان مسلحة قادها الشيخ جُنيد أولا ومن بعده ابنه حيدر، أي كانت هناك قلاقل كبيرة في الأناضول، ولم تتخلص الدولة العثمانية من هذه القلاقل ومن خطر الدولة الصفوية إلا في عهد السلطان سليم (ابن السلطان بايزيد الثاني). إذن فالدولة العثمانية كانت في ضائقة شديدة وكانت في حرب فعلية مع الماليك من جهة، وفي مشاكل كبيرة مع الدول الأوروبية حيث يرى أنه بعد سنوات قليلة اضطرت الدولة العثمانية لإعلان الحرب على المجر وعلى بولندية. كما ألفت بولندية والمجر وليتوانيا ضد الدولة العثمانية وأعلنت عليها الحرب، كما كانت تعاني من وجود قلاقل وحركات تمرد وعصيان في الداخل. لا يريد الخروج عن الموضوع وإيراد تفاصيل حالية، ولكن كان من الضروري إلقاء نظرة على وضع الدولة العثمانية آنذاك.

ثم يقول الشاعر بأهم أصبحوا ضحية الغدر وعدم الوفاء بالوعد والبيود التي بلغت خمسة وخمسين بدا في عقود الصلح، من أهم سيستمرون في إقامة شعائرهم الإسلامية بكل حرية، ولكنهم عندما دخلوا تحت حكمهم نسوا تلك الوعد والعهود وتركوا المسلمين أمام خيارين لا ثالث لهما إما التنصر أو القتل. ثم يستعيت الشاعر سلطان الدولة العثمانية، وبعد أماله عليه:

فها نحن يا مولاي نذكر إليك
فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى دلتنا يبقى لنا وصلاتنا
كما عاهدونا قبل تقض العرصة
ولا فيقولنا حيمًا عن أرضهم
بأموالنا للغرب دار الأحبة
فأنتم محمد الله خير ملوكنا
وعزتكتم تعملو على كل عرة
وتسم سلام الله قلت ورحمة
عليكم مدى الأيام في كل ساعة

دعا السلطان بايزيد الثاني القصر الأعظم والوزراء والقراد إلى مجلس اجتماع طارئ ليبحث الموقف وما الذي تستطيع الدولة العثمانية تفديته في تلك الظروف.

بحث المشاركون في المجلس الظروف التي تمر بها الدولة العثمانية آنذاك، ونوع ومدى المساعدة التي تستطيع الدولة تقديمها لمسلمي الأناضول. ولسوء حظ مسلمي الأناضول فقد كانت الدولة العثمانية تمر بظروف قاسية جدًا، كما كان بعد المسافة، وعدم وجود طريق بري مباشر إليها يزيد من حدة المشكلة ويعقدها.

الظروف الصعبة للدولة العثمانية

نستعرض هنا باختصار شديد الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية آنذاك:

العثمانيون والماليك

كانت الدولة العثمانية آنذاك في حرب مع دولة للماليك في مصر، بسبب نزاعات بدأت من عهد السلطان محمد القانج (ووالد السلطان بايزيد الثاني). فقد عرض السلطان محمد القانج على أشرف سيف الدين حاكم دولة للماليك في مصر (الذي كانت مملكة الخصار وتحت سيطرته) قيام الدولة العثمانية بتعصير وإصلاح قنوات لاء في الخجاز دون مقابل تيسيرا للمحتاج، فقبل برفض فقط من قبله. ومما زاد من التوتر بين الدولتين قيام للماليك

بايزيد^١ يفعل ما يستطع

١٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م استسلمت مدينة غرناطة وانتهى حكم المسلمين في الأندلس. ولكن هذه القوة البحرية قامت بنقل ما يقارب من ٣٠٠ ألف من المسلمين التاركين بيوتهم وأماكنهم على وجوههم من الأندلس، إلى المغرب وإلى الجزائر. أما الوفد الأندلسي الثاني المرسل إلى دولة المماليك في مصر فلم يحصل على أي نتيجة أيضاً حيث إن مصر بعيدة عن الأندلس، ويحتاج إقادة هؤلاء المسلمين إلى قوة برية. كما كانت في حرب مع الدولة العثمانية كما ذكرنا.

كان الأشرف سيف الدين قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦م) هو الذي يحكم دولة المماليك آنذاك، فلم يجد وسيلة لنصرة مسلمي الأندلس سوى إرسال وفود إلى الشاه وإلى الأسبان ليقول لهم أن هناك العديد من المسيحيين يعيشون في مصر وفي سورية وأنهم يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية ولا يتعرض لهم أحد، وليحذرهم بأنه سيقوم بقتل جميع المسيحيين وإجبارهم على اعتناق الإسلام إن قام الأسبان بقتل المسلمين أو إجبارهم على القصر. ولم يهتم الأسبان ولا البابا هذا التحذير الذي عدوه مجرد تهويل لأنهم يعلمون أن الدين الإسلامي يمنع إكراه أحد على ترك دينه. وقد ادعى الأسبان لقد مصر أن المسلمين تنصروا على إرادتهم ولم يجبرهم أحد على هذا، وجاؤوا بشهود زور ثم تهددهم وتخويفهم فقتلوا بذلك.

وقد سجل أبو البقاء في شعره هذه الحادثة وذكر أسماء للذين التي عذب أو أحرق أهلها أو ذبحوا بالسيف قائلاً:

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا
أسارى وقضى تحت ذل ومهنة
وسل بليقيا عن قضية أمرها
لقد مُرِّقوا بالسيف من بعد حيرة
وضيافة بالسيف مرق أهلها
كذا فعلوا أيضاً بأهل البصرة
وأندلس بالشار أحرق أهلها
فما جمعهم صاروا جميعاً كفاحية

وهكذا بقي مسلمو الأندلس وحدهم في الميدان وتجرعوا الآلام وبادت دولتهم الزاهرة حواء تفرقهم إلى طوائف عديدة. فصرخوا على أهاليهم وبلدهم تلك النهاية المرعبة التي ستبقى من أكثر المآسي المرعبة في التاريخ الإنساني. ■

بعد دراسة لكافة الظروف الداخلية والخارجية قرر السلطان بايزيد إرسال قوة بحرية تحت قيادة "كمال رئيس" على وجه السرعة. كان ذلك في عام ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م، أي قبل سقوط غرناطة بنحس سنوات. وكانت الدولة العثمانية يعملها هذا تعلن الحرب على عدة دول مسيحية في أوروبا، كانت تعلن الحرب على قسطنطينا وعلى أرغون وعلى نابولي وعلى صقلية وعلى البندقية، أي أن الدولة العثمانية على الرغم من مشاكلها الكثيرة -التي ذكرنا أهمها- كانت الدولة الإسلامية الوحيدة التي مدت يد العون لمسلمي الأندلس على قدر طاقتها، ودخلت من أجلهم في حالة حرب مع دول عدة، بينما توقفت عن ذلك الدول الإسلامية الموحدة في شمالي أفريقيا والتي كان بإمكانها من الناحية الجغرافية مسلمي الأندلس كالدولة الحفصية في تونس والدولة الوطاسية في المغرب.

قام "كمال رئيس" بضرب سواحل جزر جازيا ومالطا وصقلية وساردونيا وكورسيكا، ثم ضرب سواحل إيطاليا ثم سواحل إسبانيا، وهدم العديد من القلاع والحصون المشرفة على البحر في هذه السواحل. وقام أحياناً بإلزال حدوده في بعض السواحل فدم تلك القلاع. ولكنه لم يكن يستطيع البقاء طويلاً، لأن الحرب البحرية لا تكفي للاستيلاء على المدن ولاسيما المدن الداخلية البعيدة عن البحر، فلا بد من مشاركة القوات البرية التي تستطيع التوغل في الداخل وتثبيت وإدامة السيطرة على المدن المفتوحة. ولم يكن هذا ممكناً آنذاك، لبُعد البقعة بين الأندلس وبين الدولة العثمانية وكذلك بين مصر والأندلس. ولو صرفت الدولة العثمانية كل طاقتها وحاولت الوصول برّاً إلى الأندلس (وهذا ما لا يتوقعه عاقل) لكان عليها مجازية العديد من الدول الأوروبية لعبثرات الأعداء. هذا علماً بأن دول الأوروبية كانت قد قطعت كل صلة لمسلمي الأندلس مع البحر الأبيض المتوسط، كما سلّوا مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة إليهم من الدول الإسلامية. وقام "كمال رئيس" بقصف بعض سواحل تونس بسبب كون الدولة الحفصية الخاضعة في تونس في حلف مع الأسبان ومع فرنسا ضد إجبارهم من مسلمي الأندلس.

وكم كان من المؤسف أن هذه القوة البحرية العثمانية اضطرت أخيراً إلى مواجهة الدولة الحفصية في تونس لكونها تقوم بمساعدة الفرنسيين. ولكون الدولة العثمانية في حرب مع المماليك فقد وقعت هذه القوة البحرية بين نارين، لذا لم تؤد هجمات هذه القوة البحرية إلى نتائج ملموسة. وفي عام

(١) كتاب وياحترى ركي



كالشمعة...

عليك أن تشتعل وتذوب لتتير الدروب للآخرين...



العقيدة الإسلامية بين جمال القرآن وتقسيمات علم الكلام

أ.د. فريد الأنصاري*

كان المسلمون عندما يتفوقوا بجوارها القرآنية الخليفة، يتفاعلون معها تفاعلا عاليا؛ إذ يتحولون بسرعة وبعمق كبير من بشر عادي، مرتبطون بهالات التراب، إلى حالائق سماوية تنهس لللاذكية في السماء، وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ولذلك خلق الله لهم المعجزات في الحضارة والشارح. إن الكيمياء الوحيدة التي كانوا يتفاعلون بها هي "لا إله إلا الله"، لكن ليس كما صورها علم الكلام بتق مدارسه ومذاهبه، وإنما كما عرّفها القرآن آيات بهيات وحكمات.

كلمة البدء في الإسلام هي "لا إله إلا الله"، وهي كلمة سر، سر في غاية الطلاقة والبهاء. نعم، كل المسلمين يقولونها، ولكن القليل منهم هم الذين يتدققونها حقاً؛ ذلك أن انصرافهم إلى التصورات الكلامية في جمال العقيدة قد صرفهم عن فصاحتها الجميلة ومراجعتها الجليّة.

الإسلام عقيدة تربوية في الأساس

إن عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق على الوحدان والسلوك. وقد

ل



المسلمين اليوم، فلا يرون في الدين إلا محسونة وحرورية. هذا التعصب في الأقوال والفعال، الذي سيطر على تدبّر كثير من الناس اليوم؛ إنما كان لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة، ليس هذا مجال بيانها. ولا يجوز أبداً أن تكون مسوغاً للاختلاف عن هاء الدين وجماله. وإنا أنزل الله ليكون حبيلاً، تتلوه القلوب، وتتعلق به الأنفس؛ فلا تستطيع منه هكّا، فسُئِمَ -عذبه الخبي وإغرائه البهي- لله رب العالمين.

"لا إله إلا الله" -إد بقولها العدد مستشعرا دلالتها الطفلية- كلمة "قلية" مدارها على وصف حال، والاعتراف بنوع صفات الكمال والجلال، إلفا تعبير عن الحضرة الوجودية التامة لله. معي قلت "الوحداني" لألفا -بساطة- كذلك وردت في سياقها القرآني الأميل.

ولو تأملت هذه العبارة العظيمة في اللغة، لوجدتها تقوم على لفظتين أساسيتين، هما مدار الإسلام كله: "الله" و "الإله".

فأما كلمة: "الله" فهو لفظ الجلال، الاسم العظم على الذات الإلهية، الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العُلَى. ولفظ "الله" فرد في اللغة، فلا يجمع ولا يتعدد.

وأما كلمة "الإله" فهو لفظ وصف، يدل على معنى شعوري قلبي؛ ولذلك فهو يتعدد، إذ يجمع على "ألهة". وأما باقي العبارات في "لا إله إلا الله" فهي "لا" النافية، و "إلا" المحصورة، تقومان بدور البناء والتركيب اللغوي؛ للنفي والإثبات، الذي يربط نوع العلاقة في قلب المؤمن بين الوصف "إله" والاسم "الله". وحقيقة تلك العلاقة هي ما يهينا في هذا البحث، إنها علاقة تملأ الوجدان بما يغيب عن قلب العبد المعترها حقاً وصدقاً من الاعتقاد والشعور تجاه مولاه جلّ علاه.

ذلك أن كلمة "إله" في أصل الاستعمال اللغوي كلمة قليلة وحنائية، كما ذكرنا. أعني أنها لفظ من الأنفاط الدالة على أحوال القلب كالحب والبغض والفرح والحزن والأسى والشوق والرغبة والرهبة... إلخ. أمثلها قول العرب: "الله الفضيل" -يألفه- أنها إذا نأح شوقاً إلى أمه، والفضيل ابن الناقة إذا قطع، وفصل عن الرضاع، يحس في الهمة وتترك أمه في الرعي، حتى إذا طأ به الحمار ذكر أمه وأحده الشوق والحنين إليها -وهو أنك حنيت عهد بالقطام- فهاج ورعى رغاء أشبه ما يكون بالنكاء، فيقولون: "أله الفضيل" فأمه إذن هينا هي "إلهه" نالعي اللغوي، أي ما يشوقه. ومنه قول الشاعر: "ألهت إلهيا والركائب وقفت".

جاء في اللسان: اسم "الله": تفرد سبحانه هذا الاسم، لا يشركه فيه غيره، فإذا قيل: "الإله" انطلق على الله سبحانه وعلى

إن التسميات الكلامية للعقيدة الإسلامية التي أملت ضرورة حاجتها حيناً، وضرورة تعليمية حيناً آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية؛ فخلوها من روحها الرباني وسرها التعسدي، الذي لا يمهّد إلا في كلمات القرآن وأحرفه: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول 'الم' حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف" (رواه الترمذي). ثم إن التعبير عن حقيقة السدات الإلهية لا يكون على كمال صدقه، جلالاً وجمالاً، إذا كان بما غير الله به عن ذاته سبحانه وصفاته. وما كان للنبي المحدود أن يحيط وصفاً وعلماً بالمطلق غير المحدود. ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقدي في الإسلام.

تفعيل العقيدة

كثير من الناس يتكلم في العقيدة اليوم ولكن قليلاً منهم يتفاعل معها؛ لأن العلم الجذلي ما كان له أن يوفي ثماراً قليلة، وهو قد أنتج أساساً لإشباع رغبات العقل المماري، لا لإشباع حاجات القلب الساري. وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتخاطب بالعقيدة الإيمانية (العقول)، خطاباً ينفذ من خلافاً إلى القلوب، حيث تستقر بقوة، تثبت حجات وأصحاباً.

إن السر الذي تضمنته عقيدة "لا إله إلا الله" والذي به غيّرت مجرى التاريخ مراراً ومرات والذي به صنعت الشخصيات التاريخية العظيمة في الإسلام، إنما يكمن في "جماعها". الجلال، ذلك الشيء الذي لا يدرك إلا بحاسة القلب، إنه إحساس: "كم هو جميل أن يكون المرء مسلماً!". ودون هذا الإدراك اللطيف للدين، إدراكات أخرى من أشكال التدبّر، لا نعي من الحق شيئاً. لقد ضاع صفاء الدين وجماله السماوي في غبار التأويلات ورسوم التفسيرات. وقد دم قوم "الكلام"، لكنهم لم يدركوا أنهم في خصم الصراع المذهبي ردوا وقسموا "فكلموا"، وسقط عنهم بذلك هاء الدين وجماله وهم لا يشعرون. أو -على الأقل- لم يترك ذلك في الأنواع لمسات الجلال، وأفواق الصفاء في السلوك الذي يصقلون به على أنهم "مسلمون". فكانت التصورات في واد، والتصرفات في واد آخر. وذلك لعمرى هو الخشوع المليون، إن القرآن الكريم والرسالة النبوية يقولان لنا حقيقة جليلة عظيمة، لم يستطع أن يوصلها إلينا علم الكلام: هي أن عقيدتنا جميلة.

عقيدة جمالية

ولكم هو مؤسف حقاً أن يصيب هذا المعنى من تدبّر كثير من



هنا كانت شهادة "ألا إله إلا الله" من الطهارة بمكان، بحيث لا تدرك على تمام حقيقتها إلا فوقا.

قال ابن القيم رحمه الله: "إن عبادة العبد لربه فوق كل عبادة تقدر، ولا نسبة لساير المحلات إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله"^(٢٢) إلى أن يقول في نص نفيس تشد إليه رحال: "فلم يطلت مسألة المحبة لطلعت جميع مقامات الإيمان والإحسان، وتعلقت منازل السسير إلى الله. فإلهها روح كل مقام ومزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبته إلى الأعمال كسببة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالكل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له ابته، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن "الإله" هو الذي يأخذه العباد حيا وذا، وحرها ورجاء، وتطعما وطاعة له، بمعنى "مأثله": وهو الذي تأخسه القلوب. أي تحبه وتذل له فألمحة حقيقة العبودية"^(٢٣).

معنى الإسلام

ذلك أن معنى "الإسلام" هو الخضوع لله رب العالمين، والاستسلام لأمره تعالى. إنه الاعتراف بالوحداني، أي التشيع العملي عن الشعور الحقيقي الذي يلامس القلب، عندما يترك العبد و"عبداً" أنه "عبد" لسيد هذا العالم العلي. حقيقة كون المسلم عبداً هي الحقيقة التي تغيب عن أكثر المسلمين، فيحدث بسبب ذلك الاعتراف بشيئ ثوابه وأشكاله.

إن "العبد" مسلوب الإرادة. ليس بالمعنى الكلامي ولكن بالمعنى الوجداني، أعني أن تجد الشعور بأنك أيها المسلم منك لله الواحد القهار، تدور في فلك العبودية والخدمة كما تدور الكواكب في الأفلاك. "لَهُ مُقَالِدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْبَدَنِ كَفَرَوا بِآيَاتِ اللَّهِ أَنْزَلَتْ لَهُمْ أَنْصَارُونَهُ" (٢٤). وتلك هي مصادرات اللفظ وعدم في اللغة. إنها لا تفسر عن معنى اللفة والخضوع والخشوع والانقياد، كما تنقاد الأنعام للسلطة لملكها رغبة ورهبة، القيادة لا تشج فيه ولا تغلّت.

والعبد لا يكون إلا في باب الخدمة بين يدي مولاه، وانقادا على العتبة ينظر الأمر والشئ يشوق المحب، ليبادر إلى التقيد دون سؤال: علام ولية؟ "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ" (٢٥). (٢٦). إنه الرب المحبوب الأعظم، المرغوب المرحوب، رب الكون والخلق أجمعين. يمكنك أن تعرف عقيدة الإسلام في هاية المطاف، فنقول إنها ميثاق المحبة بين الله وعباده، أو هي دستور السلام.

ما يعبد من الأصنام. وإذا قلت "الله" لم يبق إلا عليه سبحانه وتعالى. وقيل في اسم الباري سبحانه: إنه مأخوذ من آله - يَأْلَهُ: إذا خَشِيَ، لأن العقول تأله في عظمته. وآله يَأْلَهُ أَلْهًا: أي خَشِيَ، وأصله وَلَهُ يَزْلَهُ وَلَهًا. وقد أُلْهِتْ على فلان: أي استند جرحي عليه مثل وكهت. وقيل: هو مأخوذ من آله يَأْلَهُ إلى كذا، أي: جأ إليه؛ لأنه سبحانه السَّمْعُ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ في كل أمر"^(٢٧). إذ "الإله" في هذا السياق اللغوي هو: ما يشوق القلب، ويأخذ مجامع الوجدان، إلى درجة الانقياد له والخضوع. قال عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (سورة ص: ٢٢).

والراجح فعلا أن "الله" هو من "وله" ومنه اشتق الاسم العلم "الله"؛ لأن مدار كلا المادتين على معاني القلب، فأبديت من الروا هرة. قال الراغب الأصفهاني: "أَلْهَ فُلَانٌ - يَأْلَهُ: عَبَدَ. وقيل: أصله ولده، فأبدل من الروا هرة، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق ولها هوة، إما بالتسمير فقط كالحمدات والحيوانات، وإما بالتسمير والإرادة كعصبي الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبب الأشياء كلها"^(٢٨).

و"الولة": هو الجون الحاصل بسبب الحب الشديد، أو الخوف الشديد، يقال: امرأة ولوة؛ إذا أحب حتى حث، أو إذا نكلت؛ فحزنت حتى حث. قال ابن منظور: "الولة: الخوف. وقيل هو ذهاب العقل والتحرير من شدة الوجد، أو الخوف أو الخوف. والولة: ذهاب العقل لفقدان الحبيب وناقة ميلة؛ هي التي فقدت ولدها فهي تله إليه. يقال: ولَّهت إليه تله أي غن إليه وناقة وآله: إذا استند وحدها على ولدها"^(٢٩).

عقيدة حب ووجدان

وهكذا فانت ترى أن مدار المادتين "الله" و"وله" هو على معان قلبية، ترجع في مجملها إلى التعلق الوجداني والامتناء بالحبيب، فيكون قول المؤمن "لا إله إلا الله" تعبيراً عما يجده في قلبه من تعلق بربه تعالى، أي لا محبوبة إلا الله، ولا مهربو إلا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصد الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصل الصغير الذي ناح شوقاً إلى أمه، إذ أحس بألم الفراق ووحشة البعد. إن للسلم إذ "يشهد" ألا إله إلا الله، يقر شاهداً على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله رغبة ورهبة وشفوقاً ومحبة. وتلك لعمرى "شهادة" عظيمة وحظيرة، لأنها إقرار واعتراف بشعوره، لا يبري أحد مصداق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد بعينه، ومعاني القلب لا تجد بعبارة ولا تفسرها إشارات، ومن



وحينما نقول "المحبة" فهي مفهومها القرآني الجامع المانع، لا مسا ذهب إلى طوائف من العبادة من هذا الإلهاء أو ذلك، ممن قالوا بما فأبطلوا كل منارل الإنسان من عوف ورجاء، فأنهت بهم الأمر إلى دعاوى عريضة يشذون بها، ما أنزل الله بها من سلطان. كلا، بل لا تقوم المحبة بقلب العبد للصادق إلا على حباسي الخوف والرجاء، وما هرع عن ذلك من معاني الرغب والرهب. والقرآن العظيم والسنة النبوية واصحان في هذا غاية الوضوح. ولا يزيح عنهما إلا جاهل أو صاحب هوى. والمحبة الحقيقية الصادقة بخلاف من الخرمات، ويتخشى من العفوية، بقدر ما يرجو ويشفق. فإذا جرد المحبة عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين. كيف ورب العالمين يقول عن صفوة من أميائه ورسوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠). كيف وهذا محمد رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين بعلمها في الأمة: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له. [وفيهِ قائل:] فمن رغب عن سنن سني فليس مني" (سنن أبي داود). ألا وإن أي اعتراف عن هذه السبيل لا يكون إلا جهلا بالدين أو رفا من الضلال المبين.

لعلى هذا الوراء إذن نقول إن عقيدة الإسلام غائمة على المحبة، بل إنها ميثاق المحبة. وبذلك المعنى كانت نقبض بأنوار الجمال ومباهج الحسنات. فليس حيناً أن يقول النبي ﷺ: "إن الله تعالى قد حرم على النار من قال "لا إله إلا الله" ينفي بذلك وجه الله" (صحيحه). أكلمة واحدة تلفظ بها تدخل الجنة نعم، ولكن، إنما لبست بكلمة ولا كلمات، إنما نوحه علي وميل وحداني، إنما مسألة "حب". وإن من أحب الله أحب الله. إنما حقيقة جميلة وعظيمة. وإن عدم إدراكها ذوقاً ووجداناً قد كان سبباً في تنضيق معاني الدين، واعتراف كثير من الناس عن منهاجه المستقيم. ■

أُتِينِ الْأَرْضَ

لن يستمر هذا الأُتِين حتى يوم القيامة،
رب مفاجأة يجتهد القدر،
فقد يظهر ليث وهو يزأر،
زئيراً يليق به بين أشجار الغابة،
فكفَّ الأرض عن التواح،
وبأني الربع...

^{٩٠} جامعة مولاي إسماعيل ورئيس المجلس العلمي بكناس / المغرب.

القوامش

^{٩١} لسان العرب: مادة "أد".

^{٩٢} المعقولات في غريب التراث: مادة "أد".

^{٩٣} لسان العرب: مادة "أد".

^{٩٤} مدارج السالكين لآل التيج: ١/١٠١.

^{٩٥} مدارج السالكين: ٢/٢٦١.

الخط الفاصل بين الإيمان والإلحاد:

البعث بعد الموت

أ.د. محمد بورقية *

إن حياة الإنسان بعد موته هي الخط الفاصل بين الإيمان والإلحاد، بين التفسير الديني لحقيقة الإنسان الذي يعمل غيابه ومصره معي وعنايه وهذا لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْكُمْ أَمْثًا خَلَقْنَاكُمْ عَيْنًا وَأَكْمَمْ بَاطِنًا لَا تُرْصَعُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) وبين التفسير للمآل الذي للإنسان الذي لا ينظر إلا إلى خلاء جسده، والذي تنتهي مسرحية حياته بالموت والبقاء.

فالإنسان منكور من مادة وروح، والروح من سنن الله الابدع تعمل للإنسان قيمة إلهية لها بيت من فضيلة وروح من عزيمته ونسوة من صيادته فتتغير بذلك نظرتنا للحياة ويرى بعون البصيرة ما وراء النطاق المعالجة من سلوك الناس والصفاتهم.

يقول ابن عطاء السكندري في مواضعه: "لو أخرق لك نور البصير لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة لبقاء عليها، فلي المحقق الذين لا موت إلا في هذه الحياة، فمن فارقتها انتقل إلى حياة خالدة لا موت فيها. ولكن العارفين كبير والبرهان شاسع بين موت وموت: فموت المؤمن العارف فوز ونجاة، وموت الجاهل كفاية جحيم ولفاء، دعت جميع الأديان السماوية إلى الإيمان بالبعث والنبشور على لسان رسلها وأسيادها، فوح عليه السلام قال لقومه: ﴿وَاللَّهُ أَنْتُمْ مِنْ الْأَرْضِ كُنَّا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (سورة: ١٧-٢٨). وموسى عليه السلام قال في دعوته: ﴿فَسَبِّحْ خَلْقَنَا كُنَّا وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (سورة: ٢٠). وعيسى لفظاً قال وهو في الجهد: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ خَلِّ﴾ (سورة: ٢٣).

ولقد وصف القرآن الكريم نكران حرب أخيرة عقيدة البعث والنبشور عندما قال تعالى على لسان مظللة العرب مثلما ساءهم لشهر سباني في كتابه "الملك والشمس": ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا



الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَتْلُونُ﴾ (الزمر: ٢٤).

لقد اقتضت الحكمة الأثرية أن يُبلى الإنسان بركة الحياة الدنيا والهاوي، فكان بذلك حُرمة للعسوق والعصيان والعلية والنسيان والإعراض عن الحق. فأرسل الله إليه رسله وأنزل كتبه، وبسّن له مواعيد رضاء وغضبه، وأن التعميم لا يترك بالنعيم، وأن أعظم اللذات محبوبة بأنواع المكافأة، فلم يحو عقول الكثيرين على إظهار الآمل المتطرق بعد فناء الدنيا على هذا المعامل للمموس، بل إن حياتهم لم تتسع لتصور نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الخسد، وآلا مسنونة كما سنام وتبعث كما تستبقي، ولا سيما العرب الذين لم يكلموا قط بشريعة، لوجودهم في فترة من الرسل بين محمد وإسماعيل ومحمد عليهما السلام.^(١)

البعث في القرآن والمشته

لقد استعمل القرآن الكريم في رده على مكري البعث على اختلاف لغاهاتهم مختلف اللواحي لإقناعهم بأن الساعة حق وأن الله يبعث من في القبور. وقدم عقيدة البعث على أمور لا بد من اعتبارها في عقيدتنا، وهي:



تؤكد عقيدة البعث على فناء هذه الدنيا وانتهاء أثرية هذا الكون، ويؤكد علماء الفلك حتمية احتلال الأجرام السماوية^(١)، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ انشَقَّتْ ۖ وَإِذَا الْبُحُورُ فُجِّرَتْ ۖ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۖ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قُلْتُمْ وَأُنْذِرَتْ﴾ (الافتتاح: ١-٥).

جاء في كتاب "للعاد" قوله: "إن قانون الديناميكية الحرارية يثبت أن الحرارة ليست دائمة إلى الأبد، وأن يوم انتهائها سيأتي حتماً، والكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها ميسر الطاقة، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيميائية أو طبيعية، وذلك بحكم الانتقال الحراري المستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، بحيث تعود الحرارة وترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة، وعندئذ تقف حركة الحياة وموت الأحياء"^(٢).

سكرات الموت ونهاية الإنسان

ليس الموت حتماً لمعنى الحياة وابتداء حالة أخرى لا شعور فيها ولا إحساس معها، إنما هو مرحلة تحول من طور إلى آخر. إن الموت هو الفجوة الكبرى للجاحدين الذين سيعرفون بعد الموت كل شيء، وسيستدركون أنهم كانوا في ضلال بعيد، سيتم ذلك بعد فوات الأوان. تثبت العقيدة الإسلامية أن ما يقع للجسد من فساد لأجهزته وهلاكه لا يؤثر في حقيقة الروح ولا في كيان الإنسان المعنوي.

ولقد عرّف القرآن الكريم عن لحظة الفسح ولحظة خروج الروح من الجسد سكرة الموت، قال جلّ وعلا: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ تَحِيدُونَ﴾ (١٩: ٥٩). وقال ﷺ يوم مفارقتها الدنيا وهو مسح وجهه بالماء: "لا إله إلا الله إن للموت سكرات".

وإن أول منازل الآخرة هو القبر، فهو مضيق ويتسع ويظلم ويؤرّج بحسب مكانة صاحبه عند ربّه. والأذنة على ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ فيما رواه البخاري أنه لما مات أبو سلمة دخل عليه الرسول ﷺ ثم قال: "اللهم اغفر لأبي سلمة واغفر له في قبره ونور له فيه". أما الدليل على سؤال الميت في القبر ما أخرجه مسلم أن النبي ﷺ كان إذا خرج من دفن ميت وقف عليه وقال: "استمعوا لأحبيكم وسلوا له الشّيت فإنه الآن يسأل".

يوحى القرآن الكريم الأنظار إلى أن الله تبارك وتعالى لم يخلق هذا الكون باطلاً ولغير هدف. يقول جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۚ مَا خَلَقْنَاهُنَّ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الشورى: ٣٩-٤٠). وبين سبحانه أنه لم يخلق الإنسان عبثاً، قال عزّ جلّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ (الزمر: ١١٥).

تبين العقيدة الإسلامية أن الإنسان له حرية عميقة في كيانهِ، لكنها ليست حرية الغرضي الخلقية التي تنتهي دائماً بتهديم الإنسان وفريق علاقته مع الوجود الخارجي من حوله. فالحق الذي خلق الله تعالى به الكون يتناقض مع الفلسفة الوجودية الملحدة؛ فليس قد عث كما يرى "البير كامو"، وليس مُساة لامعقولة للحياة والوجود كما يرى "كافكا"، وليس مُساة حرية لأخلاقية مطلقة من كل قيد كما يرى "سارتر"، وليس مُساة تناقضات نفسية لا نهاية لها تنتهي دائماً بالصياغ كما يرى "دستوفسكي". ذلك أن الإسلام يستمدّ إيمانه بالباطنية من حلال الحقيقة لا الزيف، ومن الاستقامة لا الانحراف، ومن المعرفة لا الضياع^(٣).

وإن ارتباط الوجود الإنساني بمقصده هو النقطة التي تفرق فيها الطرق بين الناس، لا في نظرهم إلى الحياة وفلسفتهم فيها بحسب، بل في أخلاقهم ونقط سلوكهم ومدى إيمانهم. فالإيمان بمصير الإنسان بعد الموت يجعل حياته غاية سامية وهدفاً أعلى. والقرآن الكريم حافل بآيات تقيم الأذلة على أن الكون ليس مهماً كما برغم الملاحدة، بل خلق الخلق باحثاً ليكون ابتلاءً والاختبار الذي سيعقبه بعث للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الزمر: ٢١).

فالإيمان بالله تعالى يُحقّق المعرفة بالمصدر الأول والإيمان بالبعث يُحقّق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه هذا الوجود؛ وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن للإنسان أن يُحدد هدفه ويرسم غايته، ويتخذ من الوسائل والذرائع ما يوصله إلى الهدف ويبلغ به الغاية. ومن فقد الإنسان هذه المعرفة، فإن حياته سوف تبقى بلا هدف ولا غاية. وحينئذ يفقد الإنسان سموه الروحي ويعيش كما تعيش الأنعام. وهذا هو الانحطاط الروحي للمعتر لتخصّصة الإنسان والمافي للحكمة الإلهية العليا من هذا الوجود.





المعاد. وما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام لما سأل ربه بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، وجواب الله تعالى له خير دليل على إعادة الخلق من جديد، قال تعالى: ﴿فَتُحْيِيهِمْ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ قَدْ فَتَرْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾، معني أن يخلقهم إبراهيم عليه السلام إلى أجزاء صغيرة يخلط بعضها ببعض خلطاً غير قابل للرجعة وتسمير ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ فَرْقٍ مِنْهُمْ جُزْءًا ثُمَّ ادْخُلْهُمْ أَجْنِبَتَكَ سَعْيًا﴾ (فرع: ٢٦٠).

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: "يخبر الله تعالى أجزاء كل طهر عن صاحبه ويجمع أجزاء كل واحد منها مستقلاً عن الساسي، فإذا اكتملت لكل طاهر هيئته الخاصة به أودع فيه الحياة حتى يمشي إبراهيم إلى هذه الحقيقت، ويتحقق علمه، ويتفلسف من معاناة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة، واكتشاف للعلوم واكتشافاً لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشبهة عن العقل" (٩).

وهذا المثل القرآني الدقيق صريح الدلالة على أن الموت تعريق للأجزاء، وليس انعداماً لها كما يظن المفكرون الذين استعظموا عودة الحياة الإنسانية بعد انقطاع الحواس والفصل الشعور عن الجسد. والنصوص القرآنية التي تؤكد إعادة الخلق والبعث والتشوير كثيرة ووفرة منها قوله تعالى:

﴿وَقُولِ الْإِنْسَانُ أَتَدْرَأُ مَا مَتَّ لَسُوفَ أُنْفَخُ فِيهِ ۖ أَوَلَمْ يَذْكُرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾ (رم: ٦٦-٦٧).
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ هُوَ أَفْهَقٌ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْتَثُ الرِّجْءَ فِي الْقُيُوتِ﴾ (الب: ١-٢).
 ﴿وَمَنْ أَكَبَّكَ تَرَى الْأَرْضَ فَارِغَةً فَبِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمُخَيِّ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (صد: ٣٩). هذا نوع من لباس الدلالة وهو "الجمع بين الأصل والقرع بدليل المعنى وعلوهمها" ملخصاً قال علماء أصول الفقه: "فدلت سبحانه في هذه الآية عباده

القعر فيه فئة وريحة والعلاء وسؤال اللكين، والدليل على وجود عذاب القعر الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه قال ﷺ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْعِلَّةِ وَالْعَشَى، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْآخَةِ قَسَمَ أَهْلُ الْآخَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَارِ قَسَمَ أَهْلُ الْبَارِ، فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". ومما يؤكد هذا الحديث قوله تعالى في آل فرعون: ﴿ثُمَّ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (عمر: ٢٦).

فإن وقت الموت أو المرحلة بين الدنيا والبعث هي حياة البرزخ التي قال فيها تبارك وتعالى: ﴿وَحَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعْنِي ۖ أَتَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا كُنْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَآئِهِمْ تَرْدَدُ إِلَى يَوْمِ يُخْلَقُونَ﴾ (يس: ١١-١٠). يقول الفسيري: "من مات فقد دخل السورج، وما بين الموت والبعث فإما راحة مقبلة وإما آلام وآفات غير مقبلة" (٣).

وإن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ حسب عقاوة صاحبها وسعادته إلى أن يأتي اليوم الآخر. هذا اليوم العظيم الذي اهتم به القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، فنال حقيقة اليوم الآخر وما يكون فيه من بعث وحساب وجزاء، ثم ما يتبعه من حوص وصراط وبقاوة، واعتبره ركناً من أركان الشريعة الإسلامية.

ويجلى هذا الاهتمام بكثرة ذكر القرآن الكريم لليوم الآخر، فلا تكاد تخلو سورة من الحديث عنه ولو في إشارة أو تلميح مع نظيره إلى الأذهان، تارة بضرب الأمثال، وتارة بالحقبة والرهان، وكثيراً ما تجد القرآن الكريم يتحدث عن الدنيا كأنها ماضٍ كان، وعن الآخرة كأنها الحاضر الآن.

الأدلة الشرعية المبينة للبعث

إن النسوت في واقعها ليس انعداماً لأجزاء الإنسان، بل تفرغها لها. وعندنا تعلق إرادة الله بعودة الأحسام، يجمع هذه الأجزاء المتشتتة ويؤلفها على حالتها السابقة جسماً وروحاً، وذلك هو

دموع وقلب

دموعك تفرق قلبي،

لا أحد يكفكف هذا الدمع...

أصيب العالم بسكتة دماغية خرساء...

مشاهد الآلام تعطي سريعاً،

دون أن تخدش ضميره،

كمن يجلس في صالة عرض

يشاهد فلماً للراحة والتسلية

والظلم يزداد عنواً كل يوم

أما رائحة الموت فقد ملأت أجواء الدنيا...

ما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بظهوره، والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة.

والقرآن الكريم إذ يدعم عقيدة البعث بمختلف الوسائل والطرق، فليس ذلك فقط على قرار الهم الله به نفسه، وإنما على أحد مستلزمات العدل الإلهي والحكمة السامية، حتى لا تكون حياة الإنسان بلا غاية ولا هدف. إن حاجة الإنسانية ملحة إلى الآخرة لضمان الخلود وإقامة العدل وتنظيم الحياة^(١). وهكذا، فإن الإيمان بالبعث كالإيمان بالله كلاهما لا يقبل شكاً ولا تردداً، لأن الفطرة السليمة تتساق إلى هذا الإيمان.

فالإيمان بالله يعترف بالمصدر الأول للوجود، والإيمان بالبعث يعترف بتصور الإنسان فيه. ومن ثم هذه المعرفة أضحت حياة كحياة الأعمام تولده الأهل والأقارب وتسيره العرائس. والله تعالى لم يخلق الإنسان بيده، ولم يخلق روحه في روحه ولم يأمر ملائكته بالسجود إليه، ولم يجعله الأمانة ولم يجعل له اختلاف، ولم يستخر له ما في السموات والأرض إلا ليحكم من وجوده غاية سامية تتفق مع حكمته العليا وعمله المطلق، حتى لا تذهب جهود هذا الإنسان سدى مصداقاً لقوله جل ثناؤه: ﴿وَنُفِخُ فِي الصورِ لِلْجِبَالِ الْكُوفِ وَالْجِبَالُ يَكُونُ دُخَانٍ وَمِنْ دُخَانِهَا تُصْعَقُونَ فِى الْيَوْمِ الْاَوَّلِ﴾^(٢). ■

^(١) جامعة الزيتونة / تونس

أطوامش

^(٢) لروح الأبرار في معرفة أحوال العرب، محمد شكري الأوسمي، ص ٩ - ١٠.

^(٣) في القدر الإسلامي للعاصم، لعبد الحليم خليل، ص ٤٢.

^(٤) الإسلام بتدوينه، لوحد الدين، ص ٨٢ - ٨٣.

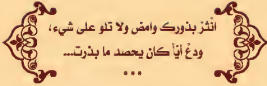
^(٥) للعالم محمد حسن آل ياسين، ص ٥٠.

^(٦) لطائف الإشارات، للتشيري، ٢٤٤/٤.

^(٧) التفسير والتفسير، لابن عاشور، ٣/٣.

^(٨) عقيدة البعث في الإسلام، للتلامي، ص ١٤٠.





قراءة في عنوان ما صنف في الحديث والقرآن تطور نظام العنونة في الثقافة الإسلامية

✦ د. محمد جكيبة ✦

وكان من الطبيعي أن تظهر للقرآن أسماء جديدة بعد أن جمع على عهد عمر رضي الله عنه، يقول صبيحي الصالح: "ويبدو أن تسمية القرآن بـ"المصحف" نشأت على عهد أبي بكر، فقد أخرج ابن أسنن في كتاب "المصاحف" من طريق موسى بن عقة عن ابن شهاب قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق قال أبو بكر: المسموا له أسماء. فقال بعضهم "سفر" قال: ذلك اسم تسميه اليهود. ففكروا ذلك وقال بعضهم: "المصحف" فإن الحسنة يسمون مثله. فاجتمع رأيهم على أن يسموه "المصحف"^(١). وبذلك صارت التسمية عنواناً جديداً للقرآن في شكلها الجديدة، وأصبح القرآن يعمل عنوانين:

- الأول متصل بطبيعة المادة، وهو عنوان توقيفي.
- الثاني متصل بشكل المادة التي أصبح عليها، وهو عنوان توضيحي وعلمي.

وهذا قد "القرآن" و"المصحف" هما أقدم العناوين في تاريخ الثقافة الإسلامية، ويرتفعان على قمة العناوين في عصر التدوين. ولقد أصبح القرآن الكريم مع نواحي الرمن مطبوعاً للعديد من المصنفات والمؤلفات والكتب التي تناولته بالتفصيل والتفسير، عارضة مختلف مواطن إعجازه، وكاشفة كنوزه المعرفية والدينية.

رابط يزوج مجلس الحضارة الإسلامية وتطورها بتدوين المعرفة. وتعتبر العنونة مطهرة من المظاهر التي عكست ذلك الزوج. فقد تطور نظام العنونة في الثقافة الإسلامية تطوراً علمياً سرب إليه من فرعي العلوم التي حققت مختلف الجوانب والمدنية والمعرفية. ولا شك في أن الإسلام كان العامل الأهم في هذا التطور لرسم الخطوات الكبرى والأولى لهذه الحضارة، بدءاً من مركبة القرآن الكريم في صلب الحركة المعرفية الإسلامية.

العنونة في الثقافة الإسلامية

لم يعرف التاريخ كتاباً يسمى بـ"القرآن"، فهو اسم خاص بالكلام المنزل على الرسول ﷺ. وعلمياً بعد مصطلح "قرآن" أول عنوان اختصاراً للإسلامية. فرغم كونه اسم جنس دال على "الكلام المعجز المنسزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر للتعبير بتلاوته"^(٢) فقد وُلق بدلالة عنوانية. والنسج لقصد كتابه القرآن بلا حقد أن الصحابة الذين اهتموا بتدوين القرآن كسيدنا عمر وأبي بكر وريد بن ثابت وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يستعملون لفظة "قرآن" بعد عناوين^(٣) للدلالة على هذا الخطاب المعجز.



جسداً، إذ لم تكد تصل نهاية القرن الأول الهجري حتى كانت تصانيف بعض علوم قد أخذت مكانتها، وبدأت شخصيتها لتبلور. وبرزت عناوين هذه المرحلة عميزات أهمها:

١- البساطة، وتلحقي في الإحالة على طبيعة الجهد الذي لا يصرح في الغالب عن دائرة القراءة والتفسير.

٢- الإحالة المباشرة على المضمون، والابتعاد عن التكلف اللغوي، والإطباب. ولذلك مروراً أهمها طبيعة المجال المشتغل فيه وهو القرآن الكريم الذي يحتم عدم التكلف؛ وطبيعة المرحلة التي تتميز بكونها بداية عثلية وممكنة بإعطاء فكرة صادقة عن المضمون دون زيادة.

٣- سيطرة السرعة الثورية في بعض العناوين، وهو ما يفسر طول بعضها، كـ "كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق".

٤- قضاها عدد من العناوين في الصبغة كـ "كتاب المقطوع والموصول" الذي لجه عند عامر وعند حمزة الزيات، وكـ "كتاب القراءة" الذي لجه عند "ابن كثير" وعند "نافع". ويرد ذلك إلى عدم نضج فكرة العنوان لدى المصنفين الأوائل. فعالمياً ما يضاف مضمون الكتاب إلى مصنفه، وتلك ممارسة تحد فعليها: في فئة المصنفات مقارنة بالمراسل الآتية، وفي الغرض على الرواية الصحيحة التي تستند على التأكد من هوية المصنف، وهو مرتبط أخلاقياً وحضارياً بسبق الباب لظهور علم الخرج والتعديل.

٥- الراجح أن عدداً من الكتب والرسائل في فصل إثبات الشكل والصورة التي صيغ بها واحتمل أن تكون العناوين الخفيفة هذه المصنفات ضاعت وخوش بها عناوين تفسيرية ومباشرة، وهو ما يرجح تناقلها مشاهلة في أول الأمر، ثم تدوينها بعد ذلك.

٦- وأخيراً فإن أصالة هذه العناوين فطرية وواضحة، فلا أثر فيها للمؤثرات الأجنبية الدخيلة، فهي من صميم الدين الحديث وعلى العموم لفكرة صياغة العناوين لم تكن واضحة وحلبة نظراً للأسباب التي ذكرنا. فالإشارات الواردة في عناوين هذه المرحلة نادر بشكل من الأشكال عن المدونة. فإذا قبل ملا "كتاب ابن عباس"، فهذه العبارة عنوان على مدونة لابن عباس دون فيها ما يفسره من أي القرآن الكريم وملاحظات أخرى.^(١)

إن الغالب على عناوين هذه المرحلة هو الطابع الدائلي الرامي إلى التسهيل على القارئ في التعرف على المضمون، مع رغبة بالمصدر الشتمل في اسم المؤلف. وإذا كان ضبط القراءة والتفسير هو عمن الجهد المطلوب في هذه المرحلة، فإن علة ذلك هي

والعنوان موطن بجلي المجهود الذي صرفه العقل الإسلامي في هذا المجال، كمّاً وكيفاً، وللمس هذا الجهد تشير إلى أن تدوين المعرفة الإسلامية قد مر إجمالاً بثلاث مراحل أساسية هي: مرحلة الجمع والنقل، ثم مرحلة التدوين، وأخيراً مرحلة الترتيب والتصنيف.

تعتمد للرحلة الأولى حاسمة لتكريزها على تحصيل ما في المصدر من معارف؛ وتطلب ذلك جهداً كبيراً تحسد في عبدة الغرض على طلب كل ظروف المعرفة، ووضع الأسس الواقية من النوع في النقل، والتثبت من صحة ما يجمع ويقبل.

وأما المرحلة الثانية فكانت مرحلة التدوير فيما تم جمعه وتدوينه، فهذه للاستفادة منه في فهم القرآن والحديث في المقام الأول، وللعلم بالأمر التي نشأت على هامش الأصول الكبرى في لنظام الثاني. وهي المرحلة التي صنفت فيها أهميات الكتب التي وضعت الثوابت المعرفية الأساسية للثقافة الإسلامية.

وأما المرحلة الثالثة فيمكن اعتبارها مرحلة إعادة التأمل فيما تم تدوينه من معارف بالشرح والتعليق والتفسير وضع الخواشي. ولكل مرحلة عناوينها الميزة لطبيعة النشاط السائد. وبكفي العودة إلى المصنفات التي اهتمت بالتأريخ للمجهود الذهني كـ "المهرست" لابن البندم و "تاريخ آداب العربية" لتكارل بروكلمان و "تاريخ التراث العربي" لمؤاد سركين، للوقوف على مدى التلاحم بين العنوان وطبيعة المرحلة تأليفاً وتصنيفاً والنشاط العربي السائد.

علوم القرآن ونشوء مدارس القراءات
فالنصف الثاني من القرن الهجري الأول كان هو البداية الفعلية لتكوين التخصص في علوم القرآن، ونشوء مدارس القراءات، التي تكونت حول عدد من التابعين الذين تلقوا القراءات عن الصحابة في المدينة والكوفة والبصرة. وأقدم كتاب معروف في الموضوع كتاب عنوانه "كتاب في القراءات" ليجي بن يعمر (ت: ٨٩ هـ / ٧٠٧ م)، وهو أحد تلاميذ أبي الأسود الدؤلي؛ وكتاب آخر لعبد الله بن عامر الجبلي (ت: ١٨٥ هـ / ٧٣٦ م)، وعنوانه "اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق". والراجح أن كتاباً أخرى قد جرى تصنيفها في هذه المرحلة في ضوابط القراءة وقواعدها، وفي اختلاف المصاحف المستعملة في مختلف الأمصار، ولكن عناوينها لم تصل إلينا.

وبالاحظ في عناوين هذه المرحلة، على قلها، إشارتها إلى المضمون إشارة مباشرة، زيادة على بساطة تركيبها، وأصالتها، وهي لا تعطي الانطباع بوجود شخصيات لمجال دون آخر. لقد أصبح القرآن موضوعاً للتأليف والتصنيف منذ زمن مقدم

الحاجة إلى الفهم الصحيح للقرآن والمحافظة عليه.

وأما بخصوص الحديث فالؤكد تاريخياً أن تنويه كان بدأ على عهد الرسول ﷺ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث عن رسول الله ويكتب كل ما يسمعه منه، وكان الرسول ﷺ يؤيده في ذلك، وكان عبد الله يسمي الرفعة التي كتب عليها الحديث "الصادقة"^{١٧} التي نعتدها أول مدونة في الحديث وأول عنوان فيه. وبوارها عنواناً آخر هو "الصحيفة الصحيحة" وأطلقه همام بن منبه على مجموع الأحاديث التي سمعها عن أبي هريرة رضي الله عنه وتأثير العنوانين في المصنفات الحديثية سيظهر جلياً في تصانيف كثيرة لاحقة. فقد عوت الكثير من كتب الحديث بـ "الصحيح"، ولعلنا هنا نصدّق التاريخ لتدوين الحديث، ولكننا نرغب في تتبع التطورات التي مر بها عنوان المصنف الحديثي، لأنه يكتشف من قدر من التطور المنهجي والمعرفي الذي عرفه هذا المجال الذي نوح في القرن الثالث الهجري بظهور أغلب للمصنفات الصحيحة التي تمثل عصارة جهود جمع الحديث ونقله من أهواء الرواة وصدور العلماء والمفكرات للقرعة.

العقود وتدوين الحديث

وفيما رجع إلى العقود، فقد انطسورب موازنة لتدوين الحديث والتأليف فيه. يلمس ذلك من خلال بعض الكتب المصنفة خلال المراحل الثلاثة مثل "صحيفة" عبد الله بن عمرو بن قعاص (الصادقة)، و"صحيفة" جابر بن عبد الله، و"الحديث" لبيط بن شريط الأضخسي الكوفي وأمثالاً من المصنفات.

الطابع الغالب على هذه العناوين هو عدم خروجها عن الإشارة إلى طبيعة المصنف، بالإكتفاء بالإحالة على المادة التي كتب عليها النص (صحيفة)، أو بتوجيه المادة المكتوبة (حديث)، ونسبة ذلك إلى مدونة أو الذي وجدت عنه ساعة المصنف والجمع، دون الاعتناء بموضوع المصنف أو محتواه. الأمر الذي يسمح بأن تصور بنية العنوان على هذه الصيغة: الحالة (حديث أو صحيفة) + اسم المصنف.

ولا تعكس هذه العناوين وعي العقول خلال هذه المرحلة بأهمية العنوان، لأنه لا يمكن غاية في ذاته، فقد ظل مجرد دال على شكل ومضمون العنوان. الأمر الذي يعكس التشتت علماء الحديث رغبة الإسراع في تدوينه مخافة موت حملته الذين مات عدد منهم في العواصم، وسيعرف هذا الجهد فيما بعد بتصطلح "تقييد الحديث".

مهدت هذه مرحلة لظهور العلوم التي نعت بـ "تصنيف

الحديث". وشكلت بعض هذه المصطلحات وغيرها على الأرجح اللبثات الأولى لظهور كتب كثيرة تحمل عناوينها عبارة: "مصف"، و"سنن"، و"موطأ"، و"جامع"، و"صحيح".

تميز العناوين التي تمتد إلى حدود القرن الثالث الهجري بعناية الطابع الموضوعاتي الذي يكتشف عن وجود روعة تقريرة في أغلب العناوين إن لم نقل كلها، إذ تحمل كل مدونة عنواناً يعبر على موضوعها (الأحاديث، كتاب الدعاء، كتاب الصلاة).

والنعم في الأسماء سيلاحظ أن العنوان ظل ميلاً إلى البساطة إلى حدود القرنين الثاني الهجري، ولم تخرج هذه البساطة في الغالب عن إطار كلمة أو كلمتين (كتاب المستزاد، أحاديث، الحديث...)، وسيعرف النصف الأول من القرن الثالث تغييراً في بنية العنوان يميل إلى التركيب (كتاب الأملاني في آثار الصحابة - معرفة الرجال - وسؤالات إبراهيم بن عبد الله الخليلي - كلام بين بين مصعب في فرائد "كتاب الخروحين"). كما تحسد هذه العناوين دعوى الحديث وعلمه مرحلة جديدة مبرزة بالرغبة في التجديد والتدقيق الإشارة إلى المحتوى وضبط المادة، مما بعد امتداداً لطبيعة العنوان في المرحلة السابقة، ولكن مع ميل إلى التعامل مع الحديث في إطار موضوعات دقيقه، ككتاب الملائكة، وكتاب الجهاد، وكتاب الصلاة، وكتاب البر والصلة. وتلمس في عدد من العناوين البوارك الأولى لاستقلال كل علم من علوم الحديث بشخصيته وتخصصه كـ "معرفة الرجال"، و"طبقات الرواة"، التي حلت في أحيانها بوارك بعض علوم الحديث الأساسية كعلم الرجال أو علم الجرح والتعديل أو طبقات الحديثين.

ويبدو هذه العناوين في الأخير أحادية الإضاه لكونها مسكونة برغبة إخبار المثقف بالمضمون في المصنف الأول. الأمر الذي لا يترك مجالاً للعناية بالعنوان من الناحية الفنية، نظراً لسطوة البراعة الفنية في بعدها الأخلاقي الديني على كل العناوين.

عكس الرغم من عدم وجود حدود صارمة لفصل مرحلة سابقة عن أخرى لاحقة في مجال المعرفة، فإن المرحلة اللاحقة ستعرف دخول علم الحديث مرحلة جديدة شكلاً ومضموناً. وقد عكس العنوان هذا التحول الذي تحسد في العطاء الكثير وظهور أئمة الحديث الكبار كالبخاري ومسلم والترمذي.

إن الملاحظة الأساسية التي تنطلق بها مؤلفنا هذا القرن هي عزارة التصنيف في هذه المرحلة، فهي كثيرة يمكن العودة إليها في الكتب التي تروخ للقرنات. فالقرنان الثالث والرابع عرفا حركة فكرية نشيطة في كافة المجالات. وعلم الحديث أحد تلك المجالات التي تحسد فيها المنهج الفكري والاختصاصي لشقافة.



والمأمل في هذه العناوين سيلاحظ توجهها إلى:

١- الموسوعية، وتجلي في الدلالة على عمق الاستقصاء والجمع (الجامع الصحيح - التاريخ الكبير - كتاب الطبقات - كتاب السن...).

٢- التخصص، ويتمثل في تدقيق موضوع الكتاب (كتاب الضعفاء - كتاب الكنى - كتاب رفع اليدين في الصلاة - كتاب العلل - كتاب الجمعة...)، ويتمثل كذلك في بروز هوية أهم علوم الحديث كعلم الرجال المرتبط بعلم المخرج والتعديل، وعلم الرواة وطبقاتهم.

وإضافة إلى ذلك فإن الطابع التاريخي صار مرة تسيطر على أغلب العناوين نظرا لارتباط علم الحديث بالتوثيق، وضرورة تبيين من سلامة رجال الحديث وإدراجهم، إضافة إلى عامل لمدة الفاصلة بين عصر هؤلاء المؤلفين وعصر الرسول ﷺ والمصاحبة والتابعين.

أسباب العنونة الطويلة

وعلى مستوى الصياغة يفي عنوان هذه المرحلة مشهودا إلى صورة الصياغة الفنية من حيث البساطة، وغلبة البنية الإسمية، وانعدام التركيب إلا نادرا، والارتباط بالمشاعر بالضمون، الذي أدى في بعض الأحيان إلى صياغة عناوين طويلة دون أن يصبح ذلك قاعداً كـ "تسمية الإخوان الذي روي عنهم الحديث" وكـ "معرفة الحروحين من الرجال". ويغند الطول التمسى هذه العناوين الذي عرفته مضامين المؤلفات والتي بدأت تجمع بين الجمع والتسريح والتفسير. فصيافة العنوان أصبحت تتم في ضوء الخرس على تقديم صورة دقيقة عن المؤلف. وبلمس ذلك بالعودة إلى "الجامع الصحيح" للبخاري. فقد قسم إلى كتب، وبدل مصطلح كتاب على الجزء أو الفصل، ولا يتجاوز العنوان مصطلح "كتاب" مضاعفا إلى كلمة واحدة تدل على الموضوع المراد الوقوف عنده كـ "كتاب الإيمان، وكتاب العلم، وكتاب الوضوء...". وهي بنية مركزية بحري تفسحها إلى أبواب، وتعمل كل باب عنوانا قد يتسع طوله بحسب تنوع الموضوع كـ "باب الإيمان، وباب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام...". وكان البخاري حرصا فيما يبدو على أن يكون لكتاب عنوان يدل على مضمونه دالة واضحة وبسيطة لتسهيل على المثلي الوصول إلى مباحثه.

ومن هنا يمكن القول إن البخاري في جامعهم قد كان معنيا بتقليد، فالعند التدواني في بنية العنوان التي تطلق من استكشاف أقل انتظار المثلي يتحكم فيها عاملان، عامل ديني يتمثل في تسهيل الوصول إلى القضية الدينية كما وردت عن الرسول ﷺ، وعامل

موضوعي يتمثل في تنظيم المعرفة الدينية المنضمة في الصحيح.

ونظرا لأهمية صحيح البخاري في حياة المسلمين الدينية، لقي عناية كبيرة جدا. والعناوين الصنفية على هامشه شرحا وتفسيرا وضبطا تجسد ذلك، وهي جهود بدأت مع تصنيفه واستمرت إلى حدود القرن السابع، بل وما تزال إلى اليوم. وأهم ما سجله التأمل فيما صنف على هامش هذه الموسوعة هو الكثرة والدقة والموسوعية والتنوع. وهي عناصر تجعل أكثر من دالة، لتبينها من خلال تحليل بعض النماذج العنوية مثل "منحة الباري في جميع روايات البخاري"، و"شرح مشكل البخاري"، و"العقل الجلي في حل إشكال الجامع"، و"الإفهام لما في الصحيح من الإلهام"، و"منحة المسك الذي لفرائد صحيح البخاري"، و"الشجر الرريح على الجامع الصحيح...".

لدى هذه العناوين دالة مباشرة على مضامينها، وهي تشمل في طباقها بعدا دلاليا دقيقا يدل على حاجات المثلي للتزويد إلى الجامع الصحيح، ليعا لتعريف أوضاع الحصارفة وتدل من جهة أخرى على تبعيةها إلى مصدر واحد ترفع من قيمته التداولية بين الناس مع عمق الإشارة إلى الموضوع المعالج.

ومن الخصائص التصلية ببعض العناوين، غلبة لطبيعة المرحلة من الناحية الفنية. فإهداء من القسود الثامن أخذ العنوان يأخذ مسلكا غير معهود من قبل، وهو سيطرة الصيغة في بناءه من خلال التركيز على تتناغم الموسيقى التمثيل في التسجع والجناس والطباق. فالعنوان كعنه من غشروب المعرفة الأخرى عكس مستوى الضعف الذي عرفه العالم الإسلامي والذي تجسد في العناية بالأشكال قبل المضامين، وإن كانت هذه الضعفة تعكس عناية بالمثلي. كما تعكس بعض العناوين صورة الحياة التي عاشها المسلمون على امتداد الرقة الإسلامية، ويجلي ذلك في الرياض والرياضين والأهبار والأزهار التي تضمنتها بعض العناوين مثل كتاب "روضة العقلاء وروحة الفضلاء".

وحسبنا في هذه الحالة أن نبيه للهمتين والمحتين إلى قيمة البحث

في مجال العنات التي يتجتم المرور منها قبل قولوح إلى النص. ■

٥٥ جامعة شعب الدكاك: كلة الآداب والعلوم الإنسانية - الحديثة / المغرب لغويات

٥٦ هاجت في علوم القرآن: لصحن الصالح، ص ٢١٠

٥٧ للتصديق ص ٦٩-٧٠

٥٨ للتصديق ص ٧٧-٧٨

٥٩ العنوان في الآداب القرية، محمد عيسى، ص ١٠٥

٦٠ قطعات الكبرى لاس سجاد، ٢٢٢/٤

كما تتساقب قطرات الغيث من بين الغيوم،
هكذا ينساب جمال النفس من القلب الموصول بالله...



مع النبي ﷺ في أحزانه

إدريس بن يحيى

أخرى نعتقد أنه خاص بالرسول ﷺ. فحزنه عليه السلام حزن محب، كما أن اشتامه اشتام وهور، وهذا يدل على صغرة الكلام عن حياته ﷺ الروحية والمعوية.

ومن هنا عندما تلقى نظرة على ما ألف عن رسول الله ﷺ نجد الكتب التي تحدثت عن عائلته الداخلي هي فئة قليلة جداً. ويؤيد هذا -ولو من جهة أتماء الكتب- كتاب صلاح الدين المشعل المسمى بـ "معجم ما ألفت عن رسول الله ﷺ".^(١) نريد أن نحدث في مقالنا هذا عن موضوع لم تر في الكتاب المذكور أننا اسم أي بحث عنه، وهو "حزن النبي ﷺ". ففي الكتب المشهورة حول سيرته ﷺ من أمثال "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للفاطمي عياض، و"رأد المعاد" لاس القبيح

إن سر أعماق أي إنسان صعب جداً، فالجواب الأعماقية ليست سواء عند كل الناس، فالكلام عن الحالة النفسية لشخص ما -حتى ولو كان إنساناً عادياً- ليس بالأمر اليسير؛ لأن هذا الجانب موضوع قاتٍ يختلف من شخص لآخر. فما بالك إذا كان الحديث عن العوالم الداخلية للنبي المصطفى (عليه أكمل النجاة) الذي هو معلّم جميع البشر ومرسلهم؛ لأن عائلته الداخلي ﷺ تضم أمته عالمية مثاليه. فالدين حاولوا أن ينقصوه ﷺ عليها من الناحية الخلقية والخلقية بظنون أنظارنا إلى كونه ذا وجه طليق دائم الانشام، وذا مسحة حزن حقيقة تعشش وجهه الكريم، ويركزون على هذا الوصف. فكون المرء في آن واحد مجزوا من ناحية ومنشما من ناحية

واللوازم الدنيوية" للناحوري، لم يعثر على موضوع تحت عنوان "حزن النبي ﷺ". ولكن من المدهي أن المواضيع والأحداث التي تنسبت في حزنه ﷺ، هي في غاية الأهمية من حيث كونها تنم عن حياته الوجدانية والروحية.

العبد الأسوة والنبي الخاتم محمد ﷺ في حزنه وألمه أيضا هو أسوة لألمته والإنسانية جمعاء. فهو النموذج المثالي الذي يمثل القمة العليا في كافة الأعمال الفاعلة التي تناسب طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها، ومن ثم فهو قدوة في عواطف الآخرين والألم كذلك، وهي من الجوانب العظيمة للإنسان. وهل الثرية سوى قلب العواطف والسلوكيات..

فحزنه ﷺ من حيث كونه قوة للأمة، ورسولا للهداية، ومرشدا، ومعلما، ومصلحا، ورئيسا للدولة، يختلف تماما من حيث العمق والمستوى عن حزنه وألمه كإسكان، كآب، كصديق، كزوج.. إلخ. ولكن من الصعب جدا تغيير هذه الحالات عن بعضها أثناء كل حادثة، ولذلك حاولنا تقديم الموضوع ككل ولم نهج طريقة تقسيم حالته المذكورة من حيث "كونه بشرا" و"كونه رسولا"، وإن بدأ التقسيم للموضوعي أكثر منطقيا. فعلى هذا سلمنا باقة من حياته ﷺ التي تشكل مثلا ومقاييسا في حزن المؤمن وألمه.

بادئ ذي بدء نريد أن نلصق الأنظار إلى قاعدة وهي أن الأنبياء عليهم السلام لا يعرفون الألمهم وأحزانهم إلا إلى الله تعالى. وقد سجل هذا وأعلن على لسان يعقوب عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يس: ٨٢). أما نبي الحزن ﷺ فقد شكوا حزنه أثناء عودته من الطائف إلى ربه قائلا: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل في غضبك، أو تنزل عليّ سلطانك. لك العني حتى ترحمي، ولا حول ولا قوة إلا بك." (١) ورفع النبي ﷺ أحواله إلى الله تعالى ليست عاصية بمحادثة بل هي عادة حارية في كل أموره.

ونلاحظ الصادق المصدوق ﷺ يعبر عن مدى اضطراب قلبه أثناء الحجارة في غار ثور عندما يهتدي زويع صاحبه أي بكر ويخفف من وطأة حزنه قائلا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (البقرة: ١٨). فكونه في مستهى الثقة والاطمئنان في تلك اللحظة المرعبة وطمأنته

لصديقه الصديق ما هي إلا ترجمة فعلية منه ﷺ بلسان الحال والحال لقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ (٢). إن حزنه وقلة في ذلك الموقف العصيب لم يكن سبب ما يمكن أن يتعرض له من أذى أبدا، إن حزنه كان أوسع وأصعب من ذلك بكثير، إنه حزن عظيم يحضن ألمه والناس أجمعين. وقول الله ﷺ ﴿غَيْرِ عَالِمَةٍ مَا عَمِلْتُ﴾ (البقرة: ١٢٨) يدل على صحة هذا المعنى.

أما شغلته وحنانه ورافته، ورعته وحرصه على اهتداء الناس إلى الطريق القويم كان يقض مصمعه ولا يدعه يتدفق حلاوة النوم، وقول الله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاحِعٌ تَفْسَلُ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢١٧) أفضل ما يعبر عن هذا المعنى. فذات مرة حاد المشركون إلى سيد الأنام ﷺ وسألوه عن بعض الأمور، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أحزكم ما سألتكم عنه عدا، ولم يستثن، فاصبروا عه. فمكث ﷺ فيما يذكره - خمس عشرة ليلة لا ينزل الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل. فحزن سيد الأنبياء ﷺ لاقطاع الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم حاد جبريل من الله ﷺ بسورة أصحاب الكهف، فيها معانيه إياه على حزنه عليهم، وحر ما سأله عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح." (٣) وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاحِعٌ تَفْسَلُ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِذَلِكَ لَقَدْ حَبِطَتِ الْأَعْمَالُ﴾ (البقرة: ٢١٧) يدل على حالته الروحية أثناء هذه الأحداث. فهذه الآيات تدل على مدى استنعاذه كرسول الهداية - بالألام، وضخامة حزنه من أجل إلقاء البشرية. ويعتقد أن "حزن النبي ﷺ هو متركز في هذه النقطة، وأن محور حزنه ﷺ هو الإيمان، ومركزه الهداية: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنْكَ كُفْرُهُ إِنَّمَا مَرْحَمَتُهُمْ هِيَ مَا عَمِلُوا﴾ (٤) إن الله عليه بذات الصدور (٥) وهذه الآية دليل قرآني على هذه الحقيقة، فحزنه ﷺ كان ساميا وهريفا من نوعه.

ومن ناحية أخرى لم يكن سيد الأنام ﷺ ملاكا، فمن الطبيعي أن تظهر عليه بعض الحالات للتروقة من البشر. ولكنه عاش حياة عودجية ومثالية للغاية على مستوى عالمي بذت معاملها وانعكاساتها على عواطفه وأحاسيسه بنفس المستوى وغنتي الأثران.

إن دعوة لم تعد بالأحزان ولم تنقلب بالمع والالام لم تنمر أبدا. إن الدعوة إذا فُشلت في مخاطبة عواطف الإنسان السامية وإثارة مكان الحزن للقدس، هل تكون دعوة الإنسانية جمعاء، ولى يكون أصحها دعاة حقيقيين.

يروى لنا القاضي عياض (٥٤٤هـ/١١٤٩م) رحمه الله في



٢- كونه ﷺ مهاجراً

فقد اضططر مفسرة الإنسانية ﷺ إلى الهجرة من مكة تحت ضغط المشركين. وفي أثناء الهجرة اتجه نحو مكة وألقاها على الخزورة، فقال: "ما أطيبك من بلد وأحبك لي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك".^(٩)

إذا كانت مشاعر الحزن المؤثرة تغمر جوانح الإنسان -لا عالة- لدى فراقه لقرنه أو قريته أو مدينته بإرادته، فما بالك إذا كان هذا الفراق بسبب الاضطهاد والإبعاد، وإذا كان هذا الشخص رسول الله ﷺ. فهو بكلماته المؤثرة عبر عن أحاسيسه نحو كعبة التوحيد في إطار بشري طبيعي مشيراً إلى مصدر حزنه الحقيقى.

٣- كونه ﷺ أباً

النبي ﷺ قد حزن على ولده إبراهيم وحفيده من زينب أثناء وفاتها، وعبر عن مدى حزنه بمسك عمرته الشريفة. فلتابع معنا الرواية في هذا الصدد:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سفيان الثوري، وكان فائراً لإبراهيم رضي الله عنه، فأخذ رسول الله ﷺ لإبراهيم يديه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم بكود بنفسه، فبجعت عينا رسول الله ﷺ تفرقان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ قال: "يا ابن عوف، إنها راحة". ثم أتبعها بأخرى، فقال رضي الله عنه: "إن العين تدمع والتفج يحزن، ولا تقول (لا) ما يرضى ربنا، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"^(١٠) وبشوة الشريف هذا عبر عن عمق تأثير مشاعره بموت ولده.

فشرف نوع الإنسان رضي الله عنه -بلا شك- كان يتفجع عن أممي ولجهد أحاسيس حزنه نحو ابنه. وقد أظهر لنا كيفية تعبرف المسلم الخالي حيال تلك الظروف، وأثبت ﷺ أن البكاء ودمع العين وحزن القلب لا يعالئ شأن الرحلة، وأن الصراع وتمزق الملابس وشق الحلب وراه الميت ليس من شأن المسلم ولا يليق به.

٤- كونه ﷺ زوجاً وأباً وصورة

التي ﷺ كزوج عاش أحوالاً كثيرة... عاش حزناً يتقدان أمنا

كتابه "الشفا" عن علي رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سببته، فقال: "المعرفة بأصحابي، والمقتل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والشفقة كسوي، والحزن رفيقي"^(١١).

والذي يعضونه ﷺ تركزون على حزنه للتواصل وبقومته فكرته، قال ابن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحرار، دائم الفكرة، ليست له راحة...^(١٢) ذكر هؤلاء "الحزن" و"الفكرة" معاً يعني أنه ﷺ قد جمع بين المشاعر السالبة والفكر. فسيك الشرح ﷺ كان يظهر فرحه بالتسامحة أما إظهار حزنه أحياناً فكان بإفراقه للنوع الساحق، وأحياناً تكراره عاره أكثر من مرة، وأحياناً سولو سيرة- بالدعاء على من أجزوه، لأن الدعاء إلى كالت نوعاً من إظهار الحزن، فالدعاء على المستبين للحزن هو طريق آخر لإظهار الحزن.

١- كونه ﷺ ضديفاً وقريباً

من ناحية أخرى ما حزن رسول الله ﷺ حزناً يستمعه من الحياة، ولكن فقدان أحيائه قد أجزته معلماً يحزن أي إنسان. فالعام الذي توفيت فيه زوجته حذيفة رضي الله عنها، وعمه وحاميته أبر طالب كان "عام الحزن" لجميع المسلمين وعلى رأسهم النبي ﷺ. ويوم استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ذهب النبي ﷺ إلى بيت جعفر ومنم أولاده إلى صدره ومسح رأسهم بشفتة وبكي. فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: "لما أتى نبي جعفر عرفني وجه رسول الله ﷺ الحزن."^(١٣)

ولما أصيب زيد بن حارثة في معركة "موتة" أنهم النبي ﷺ، فجهشت بنت زيد، أي تحركت وجمت بالبكاء في وجه رسول الله ﷺ فيكي رسول الله ﷺ حتى انتحب. فقال له سعد بن عباد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: "هذا شوق الحبيب إلى حبيبه"^(١٤).

خديجة رضي الله عنها وذكرها بما حَبَسَ في دمه دائماً.. وعانى
الخرن بافراء الملاحظين على أُنْمَا عائشة الطاهرة رضي الله عنها
في حادثة "الإفك".. وشرع الخرن بالابتعاد عن أرواحه تسعة
وعشرين يوماً في حادثة "الإيالة". وفي جميع هذه الحالات عانى
الرسول كزوج ورب أسرة من أحرار عميقة بأبعادها المختلفة،
حتى إن الخرن الذي كانته أدَّى به أحياناً إلى المقاطعة والترك.

٥- كونه ﷺ قائلاً وإماماً

لما جاء رسول الله ﷺ خيبر بئر معربة وقتل سبعون من صحابته
الكرام طهر حرته ﷺ بالدعاء عَلَى قَتْلِهِمْ قَاتِلًا: "اللهم اشهد
وفاؤك على مَعْرِ، واجعلها عليهم سَبِيحَ كَسِي نُوسَف، اللهم
عليك نبي لحيان وعسل والقارة ورغب ورغل وذكوان وعصبة
فإنهم عصرا الله ورسوله"^(١١) فعندما يصف لنا أنس بن مالك ﷺ
حالة النبي ﷺ آنذاك يقول: "ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على
شيء قط ما وجد على أصحاب بئر معربة"^(١٢)

فدعاء النبي المرسل رحمة للعالمين ﷺ على مصر من أجل ضلة
حرته، له معان خاصة جداً لأن مع تليغ الإسلام وقتل العلماء
سبب كمين لرحال الإرشاد والعلم الساعين في مفر الدين الإسلامي
قد دفع الرسول ﷺ إلى حزن بالغ، وبلغته ﷺ على المحرمين طوال
شهر بالهلاك، كان يعلن هذه الحرمة الصعبة إلى كل العالم بأسلوب
بليغ. ويعتقد أن هذا الدعاء النوي بالهلاك، في الآن نفسه موَّجه إلى
من يقف ضد تليغ الإسلام ودعائه وفي جميع الأرمية.

٦- أسباب أخرى لحزن النبي ﷺ

نرى بي الخرن ﷺ قد حزن من تصرفات بعض أصحابه خاصة
وأمنته عامة، وقام بالإفصاح عن حزنه من حوله. وفيما يلي سرد
لبعض الأمثلة.

أ- الضباط في الامتثال لأوامره ﷺ

لما واثق رسول الله ﷺ المشركين في الخديجة عام الخديجة وحال
كفار قريش دون البيت، أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يتحروا
ويخلصوا، ولكن ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات.
فلما لم يقم منهم أحد -لأن بعضهم كان قد استنفل بعض مواد
الصالح، وبعضهم لا يزال يأمل في العمرة- قام فدخل على أم

سلمة رضي الله عنها فذكر ذلك لها. فقالت أم سلمة: "يا بني
الله! أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم بكلمة حتى تحرر بئلك وتدعو
حلالك فتحلق". فقام فخرج فلم يكلم منهم أحداً حتى فعل
ذلك، فلما رآوا ذلك قاموا فحروا وجعل بعضهم يلقن بعضاً،
ففعولوا ولكن بعد توقف منهم كان قد أغضب رسول الله ﷺ.
وفي رواية عندما أمرهم، حلق رجال وقصر آخرون؛ فقال رسول
الله ﷺ: "رحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟
قال: "رحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟
قال: "رحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟
قال: "والمقصرين"، فقالوا: يا رسول الله فلم طاهرت الترحيم
للمحلقين دون المقصرين؟ قال: "لم يشكروا."^(١٣)

ب- إجهاله

ففي مقدمة الأمور التي دفعت الرسول إلى الخرن وحلته بغضب
ويتأذى، هو مسارعة بعض المسلمين بإبداء آرائهم من دون روية
-كما ينبغي- في بعض الأمور وتنسبهم في أخطاء، والحادثة
التالية موضحة لهذا الأمر بأحصى صورة. عن جابر ﷺ قال:
خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشقَّه في رأسه ثم
احتلم، فسأل أصحابه فقال: "هل يحدون لي رحمة في التيمم؟"
فقالوا: "ما يحد لك رحمة وأنت تقدر على الماء". فاعتسل
فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: "قتلوه قتلهم
الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شَاءَ العي السؤال، إنما كان
يكفيه أن يتيمم ويعصر على حرقه حرقاً، ثم يمسح عليها ويغسل
سائر جسده."^(١٤)

فإظهار الرسول ﷺ مدى حزنه هذه الطريقة، وتسميوة
للحادثة بهذا الشكل، والدعاء على من أفنى بقوله "قتلوه قتلهم
الله"، هو تحذير وتأييد لمن يُعَي في أمور الدين دون الاعتلاع
على حقيقة الأمر. فقول الرسول ﷺ للذكر يدل من ناحية على
عمق حزنه وتأثره بالحادثة، ومن ناحية أخرى هو تنبيه وتحذير
من سيكون في وضع من يُعَي بغير علم. فليقله الذين يُدُون
آراءهم ويقولون في أيامنا هذه في الأمور الدينية بغير علم، دون
أن يكون لهم نصيب من العلم في أمور الدين، ودون الخوف من
الإلقاء فيما يجهلون حكمه.

ج- العلة

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، ففحصها القوم فمهرمهم، ولحقت أما ورجل من الأنصار رجلا منهم: فلما عشيها قال: "لا إله إلا الله"، فكف الأنصاري عنه، فطعنه برمحى حتى قتلته، فلما قدما بلغ النبي ﷺ فقال: "يا أسامة! أقتله بعد ما قال لا إله إلا الله". قلت: كان متعمدا. فما زال يكررها، حتى لم يبق شيء أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم".^(١١)

فهذه الحادثة مختلفة عن السابقة من ناحية. فالتصرف في تطبيق الموضوعات الدينية ثم القضاء على حياة مسلم كما دفع الرسول ﷺ إلى الحر، كذلك محاولة تفسير الدين من وجهة فئات شيعية وصيها في هذا القلب أحربه ﷺ أيضا. أما سلوك الرسول ﷺ هذه الطريقة نحو الحادثة المذكورة لتذكير على أن أحرص ما تحتاجه المسائل والأوضاع من اعتدال وتحييل وتطبيق على نصرة هو أثناء القيام بأداء الوظيفة الدينية، وأن العلاقات بين المسلمين لا بد أن تحري وفق الروح الإسلامي، وعكس هذا هو سبب في "الحر".

د- الإفراط والتفريط

ومن الأسباب التي أحرته ﷺ وأقصته هي الاعتداء على حظ الاعتدال في اتباع السنة النبوية من خلال ابتداء مبررات لا أساس لها. فتنبه الرسول المحتج ﷺ في هذا الموضوع كان حاداً وذا أبعاد مهددة. عن مسروق في أن أما عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه فتبره عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فحطب فحمد الله ثم قال: "ما نال أقوام يتبرهون عن شيء أصبره، والله إنني لأعلمهم بالله وأشدهم له حمية"^(١٢) وهناك مثال آخر في هذا الموضوع يمكن ذكره في هذا الصدد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة إلى نبيوت أرواح النبي ﷺ يسألون عن عادة النبي ﷺ، فلما أخبروا، كانوا يقولون، فقالوا: "وأيسر من من النبي ﷺ قد عفر له ما تقم من ذنبه وما تأخر". قال أحدهم: "أما ما فرني أصلي الليل أبداً"، وقال آخر: "أما أصوم النهار ولا أبطر"، وقال آخر: "أنا أغتزل النساء فلا أتزوج أبداً". فحاه رسول الله ﷺ فقال: "أنتم فثنين قننا كذا وكذا، أما والله إنني لأحضاكم الله وأتاكم له، لكني أصوم وأطير، وأصلي وأرقد"

وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سِتِّي فليس مِنِّي".^(١٣) مثل هذا التهديد والتبعية هو عبارة عن حرز ذي أبعاد غاضبية.

هـ- الحزن بسبب التفرقة والاختلاف

فكل تصرف يسودي إلى تفرقة الأمة وبقدان وحلقا كان يعمر الرسول ﷺ في حزن عميق. وأكر دليل على هذا هو ما قاله مسلمين يتحزبان ويدعو كل منهما عشيرته ليعينه. ويعتقد أن الأمة الإسلامية للمرفة اليوم إلى آلاف قطع سب حزن له صلى الله عليه وسلم هذا المعنى.

حزن عظماء الرجال يتناسب مع قدرهم فيكون كبيراً وعميقاً. أما حزن سيد السادات ﷺ فهو أعظم حزن وأسماء دون شك. فمسجد الأنبياء ﷺ كما هو فريد في موقوفة بيوت، كذلك هو منفرد في عمومية حزنه، بحيث يعمر جميع الكائنات ويشمل الناس أجمعين. فالرسول ﷺ أسوة حسنة في ضبط وموازنة جميع تصرفات المسلمين وسلوكهم ومعاملاتهم. كذلك هو قنوة في عمن الحزن ومصلوه وغايته. ■

^(١١) حاشية مبرر كنه الإفراط - إبطول / ركبا. فخره عن فخره: أكرف أكرف القوم

^(١٢) صلاح للنس للشد في كتابه "معجم ما أوفى عن رسول الله ﷺ" يذكر اسم كتاب في هذا الحال وما: "رواجية الرسول ﷺ" لحمد الغري، بيروت، و"حياة محمد" لعلي عبد الحليم، القاهرة، ١٩٦٤م.

^(١٣) المسيرة النبوية لاس هشام، ٩١/٢-٩٢.

^(١٤) المسيرة النبوية لاس هشام، ٩٢/١-٩٣.

^(١٥) الشفاء للعاصي عباس، ٢٨٨/١-٢٨٩.

^(١٦) الشفاء للعاصي عباس، ٢٨٨/١-٢٨٩.

^(١٧) المسيرة النبوية لاس هشام، ٩٢/٤-٩٣.

^(١٨) الطيفات الفكرية لاس سعد، ٤٧/٢.

^(١٩) الرمدي، للذات ٦٩.

^(٢٠) البحاري، للذات ٤٤٣، مسنها الفضائل ٦٣.

^(٢١) البحاري، الألب ١٢٨، الطيفات الفكرية لاس سعد، ٥٣/٢.

^(٢٢) المسيرة للإمام أحمد، ٩٣٧/٣، الطيفات الفكرية لاس سعد، ٥٤/٢.

^(٢٣) المسيرة النبوية لاس هشام، ٩٣/٣.

^(٢٤) أبو ذؤود، لمطهارة ١٢٢٥، ابن ماجه، لمطهارة ٩٣.

^(٢٥) البحاري، للمغازي ٤٥، للذات ٢.

^(٢٦) البحاري، الألب ٧٢.

^(٢٧) المطرقي، البحاري، الكناح ١٦، مسلم، الكناح ٥.

العظام البشرية

مصدر إلهام للهندسة المعمارية

✦ د.د. محمد سامي بولات أوز ✦

بالاهتزاز في أثناء سير طائره عليه، الأمر الذي وجب تصميمه في موقف حرج، في حين أن توقع حركات جسده تم إشتاؤه والتعبير عنه بمعاداة واحدة بسيطة سيكون أكثر سهولة.

هناك فرائد أخرى لهذا التصور الجديد؛ فإن "قيست" من جامعة "ريدينج" يقول: "إذا كان هناك ريك رياضي واحد أثناء بأكمله، فذلك يعني أن البنان متساك ومتكامل إلى أقصى حدود". ومن ثم إذا كانت الأشكال الهندسية تتغير ببطء دون أن يُبدى تغيراً مفاجئاً، فهذا يعني أن هذه الأنواع من البنان منشآت منتظمة التغير ومتساكسة البناء، أما المنشآت التي تتعرض لتغيرات آتية ومفاجئة، فإن التمددات تتكثف وتزداد لتكوّن مناطق ضيقة تساعد على إسرار عظم الحامات وتحميها. في حين أن التغير في البناء العظمي منتظم ومتساكس ويزيد من مقاومة الكيان العظمي ومناك، وذلك يساعد على توزيع الطاقات بشكل أكثر تحاشاً وتوازناً داخل البنية. من هنا يمكن القول بأن الأشكال الهندسية التي يتم إعداد تصميمها بوحى من النظام العظمي في جسد الإنسان سوف تصنع بنفس الأوصاف المذكورة.

إن هناك حاجة ماسة للأبحاث ودراسات متقدمة تسمح للجنل أمام إمكانية نقل التصميم العظمية إلى قطاع الهندسة المعمارية. ولما كانت هذه التصميم شديدة التركيب والتعقيد فيجب فهم خصائص كافة الأشكال بالتفصيل، وإلا فإن التقليد الأعمى لن يؤدي إلى أي فائدة.

هذا، ومع تطور العلوم الحديثة اليوم يمكن فهم أسرار التصميم العجيبة للوجود في أجسام الكائنات الحية بصورة أفضل والاستفادة منها في مجالات شتى من الحياة. كما يمكن كذلك فهم العداية الرياضية الشاملة والعالم الإلهي لأجسامه والحكمة الخارقة والصبغة البديعة للتلاقة في كل مكان. ■

90 كتاب وبحث تركي، الترجمة عن التركية: د.د. الصمصام أحمد القنطوري.



باتت تصميم العظام الإنسانية تشكل مصدراً للهندسة المعمارية الحديثة. لقد فتح مهتمسان معماريان بريطانيان في تصميم جسر مستلهم من عظام العمود الفقري.

إن الكائنات الحية تستطيع أن ترفع الأحمال الثقيلة بمتى سهولة بفضل تكوين هيكلها العجيب ونظامها العظمي الخارق الذي صنعها الخالق الحكيم بهـ "كريس ويليامز" من جامعة "بات" يقول: "ليس هناك أدنى شك في أنه لو تمت مقارنة يد الإنسان مع أي جهاز مُصنَّع، فيستطيع أن يهيك اليد العظمي يعمل بصورة أكثر دقة وأرقى جودة".

إن العظام تمتلك تكويناً هندسياً في متبهي التعقيد والتركيب. الأمر الذي يضع الباحثين أمام جهد كبير للاستفادة منه في التصميم لمختلفة. يد أن "ويليامز" وزميله "تسوفه" قد طوّروا نموذجاً في الرياضيات يُمكن من خلاله إمكانية إنجاز منشآت معمارية تشبه التصميم العظمي. إن "ويليامز" استطاع أن يبن جسر للركب ويهر عنه بالاعتماد على معادلة رياضية بسيطة. فخلد كانت الجسور التقليدية تتكون من عناصر كثيرة ومختلفة في خواصها لميكانيكية؛ كما أن القتل الذي تحمله كل عنصر مختلف كذلك. وفي هذه الحال يصعب التكهّن بالكيفية التي ستتحرك عندها هذه العناصر بعد تركيبها. فمثلاً جسر "ميلنيوم" في لندن بدأ

رائد الفكر الإسلامي الحديث



شيخ الإسلام مصطفى صبري

أ.د. عمار جليل*

نبذة عن حياته

من هو شيخ الإسلام مصطفى صبري وأين نشأ وترعرع وتعلم، وما الأعمال التي تؤكد ما قلنا إليه في مدخل المقال؟

ولد الشيخ مصطفى صبري من أبوين تراكين في تاريخ ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م في الأناضول بمدينة "نوقاد" التي ينسب إليها، تعلم في بداية تحصيله العلمي على يد والده الأستاذ أحمد الشوقادي، وأتم دراسته الأولية في مسقط رأسه حيث حفظ القرآن الكريم بها، ثم واصل رحلة التحصيل بمدينة قيسري، ثم انتقل بعدها إلى الأستانة ونال إجازة زين. تخرط مصطفى صبري ابن الثاني والعشرين ربيعاً في سلك كبار المدرسين بصفة أستاذ محاضر في جامع السلطان محمد القانع، بعد امتحان التدريس

العلماء في الثقافة الإسلامية ورثة الأئبياء، لهذا بعد عملهم امتداداً لعمل الأئبياء، فيستحقون وفق مسلك الأئبياء في إنفاذ مجتبعاتهم من دركات فساد الاعتقاد والأخلاق والقوانين وسائر الأحوال. والقيام بذلك الوظيفة على أكمل وجه فتنفي من العلماء امتصاصات المعطى الثقافي والحضاري الذي تحرّك فيه دعوهم فاعلة ومتفاعلة. ولعل أصدق أنموذج معر عن استحضار لتلك اللطعات من الناحية النظرية، العمل الجبار الذي أتمه طبع الإسلام مصطفى صبري رحمه الله فقد كان بحق رائداً من رواد المقاومة الفكرية في المجتمع العلماني الحديث.



بدرجة مدروس عام سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م. وقد فُرج على يديه عدد لا يستهان به من الطلبة، ويذكر أنه سَلَّم إحازات خمسين طالباً. اختير بتاريخ ١٦ يناير ١٩٠٠م عضواً في ديوان القلم (أمانة السر). واختارته هيئة كبار العلماء المعروفة بالجمعية العلمية رئيساً لصحيفتها الأسبوعية التي كانت تصدرها بعنوان بيان الحق، ليُعين بعدها عضواً في دار الحكمة "هيئة كبار العلماء"، تولى بعدها تدريس الحديث الشريف في مدرسة السليمانية. اختير نائباً عن مدينة توفاد في المشروطة الثانية بتاريخ ١ يناير ١٩٠٨م، ثم تولى في عهد وزارة النعادم فريد باشا الأول للقبيلة الإسلامية سنة ١٩١٩م بناء على الإرادة السلطانية، وظل محتفظاً بمنصبه في الوزارتين المتعاقبتين.

ولما ضاق به حال البلاد بناء على ما تعرَّض له من ضغط وتقييد اضطر إلى الهجرة. سافر إلى مصر سنة ١٩٢٣م ومنها إلى لبنان، وبقي على تلك الحال منتقلاً فزار مكة، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٢م وهذا بعد الإقامة القصيرة بتركيا.

آثاره العلمية ووقفه مع كتاب "موقف العقل"

تتوزع آثاره العلمية على العديد من أنواع التأليف، ففيها الكتاب الجامع ومنها الكتاب البسيط ومنها أيضاً المقالات المتخصصة. وقد ألَّف باللغتين العربية والعثمانية (التركية القديمة). وأهم كتبه: التكري على منكري النعمة من الخلافة والأمة، موقف البشر تحت سلطان القدس، فوني في المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة العرب، القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون بالغيب، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين.

تضمن كتاب "موقف العقل" زبدة أفكاره وآرائه السياسية والعلمية. فهو كتاب غني بمطارحات الفكرية للتنوع حيث تجد المناقشات الفلسفية العالية والكلامية الدقيقة والسياسية في جانبيها النظري والعملية، والكتاب من عبواته يدل على أن العرض الأصلي منه هو الدفاع عن عقيدة الإسلام. والقيام بهذا العمل فرض عليه الحديث المسهب عن كثير من القضايا حيث أنه:

- كشف المؤامرات التي تعرَّض لها الإسلام من زوايا التحدي بالسلح من خلال حصص العرب، والتحدى الفكري العقدي الذي تقوده قوى الإخاد والفجور، فعمل هذه المطارحات على محاربة الفريقين.

- بيّن في كتابه قيمة الدليل العقلي مقارنة مع الأدلة التي استند إليها المثقفون الغربيون أو المنغرون. فمنه بأن الدليل العقلي

أيقن من الدليل التحريبي، وبعد النقاش في هذه المسألة تأثرنا لوجودها في البيئة الإسلامية المعاصرة.

- ناقش أدلة فلاسفة الغربيين على وجود الله كما رَدَّ شبه النافين من الملاحدة. وهذا الجهد يدل على إحاطته بالفكر والفلسفة الغربيين عامة بخلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين.
- حارب الشبه المعرعة عن الفكر الغربي (المترجمة)، والتي منها الاستخفاف بالدليل العقلي والاستناد الكلي للدليل التحريبي، حتى غدا المنهج التحريبي هو المنهج الأصيل والوحيد للمثل للثقافة الإسلامية.

ولقد نشر للشيخ مصطفى صوري مقالات باللغة التركية والعربية في الجرائد اليومية، كما نشر له مقالات في المجالات العلمية في تلك الفترة. وتعد هذه المقالات على تنوعها دفاعاً عن الإسلام وإثباتاً لقوته العلمية. إنه حاول إرجاع هيئة الإسلام المفقودة، وذلك بعث قوته العلمية والفكرية في ساحة كثر فيها العلماء المعصرون بالغرب وحضارته وفلسفته، حتى عد الشافع عن دينه وحضارته أمته تشاراً يشار إليه بالبنان.

سمات مؤلفاته

القراءة الفاحصة لعناوين المؤلفات بيّن بلاءه أننا أمام شخصية علمية تدرت نفسها للدفاع الباطل والدفاع عن الحق في العلم والسياسة. فالعناوين المختارة دالة بنفسها على مذلة المطارحة، ويؤكد هذا المسلك القراءة الأولية لما كتبه الرجل. إن لمصطلحات الموظفة في التعبير عن عناوين الكتب والمقالات تدل بنفسها على العقلية الجدلية التي يتميز بها.

إن كتبه باللغة العربية أكثر من أن نشرحها لدلالاتها المباشرة على ما رمنا بيانه في الفقرة السابقة. انظر معي لفظ "التكري"، فهو دال بنفسه على الاستفاد والإثارة وتشبيه مع شدة في اللفظ، إنه تكبر على منكري النعمة من الخلافة والأمة. وأعمل مسلك الإنكار نفسه في كتابه "مسألة ترجمة القرآن"، فقد عرضها كمسألة يراد توجيه الأنظار فيها إلى رأي مرجوح، فرام من خلال المطارحة المادنة والمادة إلى بيان القول الفصل في المسألة. ونسج على النوازل نفسه في كتابه "القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون بالغيب"، فحاول الفصل في مسألة كثر فيها الكلام وفق مشارب الآخر، لهذا ركز فرسه للمدافعة والمرافعة عن الغيب الذي يراد إبعاده خدعة للثقافة الغربية واستحجاما معها.





وبذلك المصحح كتب كتابه "قولي في المرأة"، إذ يدل بقية العنوان على الغرض الأصلي من الكتاب "ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب". إنه يرمي إلى إبطال أقوال الغربيين ومقلديهم في مسألة المرأة في الإسلام.

لما موسوعته "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" فهو يتن من عنوانه "موقف". فهو دفاع عن موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ضد أولئك الذي ينصوا بينها برأح لا تتجاوزها، بينما هم يتصافرون جميعاً (العقل والعلم والعالم) في الدلالة على مطلق أقوال المشركين والمحدثين وصحة ما ذهب إليه أهل الإيمان برب العالمين.

وتؤكد السرعة التي أصبحت في الرجل ملكة اكتسبتها الاستقلال الفكري فيما قرأه في تلك المؤلفات، إذ يصرح بأنه لا يريد "أن يقول بفكرة إن قال لها كبير أيا كان، ولا يتحلى عنها إن لم يقل لها أو قال تم رجع عنها". لهذا تراه لا يوحه اهتمامه إلى تحقيق رأي فلان أو علان، ويرى ذلك شأن غير الباقين في الحكم بعقولهم ليولونون درجة المذهب في الصحة أو الفساد بلدرجة مراكزه المعتبرين إليها.^(١) ومما ضاع مع ما ذكره تراه يفتد الخطأ حيث وسعه غير مهتم بتركز القائل، يفتد الغزالي وإن تيمية وإن القيم وغيرهم من العلماء.

لما بالنسبة للعلماء المعاصرين فقد ناقش أقوال أكثرهم شهرة كالشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وضلوت... وبالدرجة نفسها التي ناقشها فلاسفة الغرب كماركسي وهوم وكنت... وقد سبب له هذا النقد كثيراً من المخرج والتعصب، فقليل له "كيف تنقد هؤلاء الأعلام؟" قال "إن كتابي كتاب مبادئ لا كتاب تراجم".^(٢) إنها كلمة راتعة يجب أن تكون قانوناً يعمل به في تمحيص الأفكار والآراء بصرف النظر عن أصحابها ومراكزهم.

جهوده العلمية

الشيخ لعابون كتب الشيخ مصطفى صبري يدرك أن المقصد الأساسي من مؤلفاته هو الدفاع عن الإسلام والعلوم الإسلامية بصفة عامة، وذلك ضد المضحكات التي تعرض لها من قبل أبنائه، وخاصة تلك التي تلتصت بالإلحاد القائم على المبادئ المادية في العلوم أو التي قامت على المبادئ القومية في الخائب السياسي.

لذا انصبت جهوده على محاربة العقليات السائدة في الوسط الثقافي والسياسي، وعلى رأسها محاربة العقيلة الآيلة إلى الإلحاد في البيئة الإسلامية المعاصرة. وأصل هذا البناء -رأيه- الذي ساق المتعلمين الجدد إلى الشك المنهجي إلى الإلحاد اعتقاد أنه "لا يتبت وجود الله علمياً، لأن العلمية ربطت بالثبوت التحريسي الحسي وفق ما نتت به سائر المعارف والعلوم في العلم الحديث، وهذا لا يفتد بالدليل العقلي لعدم إمكان سلامته من الخطأ، وبالتالي لا يمكن الوثوق به"، فحجم عنه تسرب أمراض خطيرة إلى بيتنا الإسلامية، لعل أهمها:

- عدم الاستناد إلى الأدلة الثبوتية، وترتب عليه إنكار مسائل عيية ثابتة، واضطرب هذا إلى التأويل مسارية للعلم الحديث، حتى غدا التأويل المتعسف مسلماً لدى كثير من أعلام هذا العصر، وقد كان محمد فريد وحدي أكثرهم علواً ومسارية للعلم الوصفي (التحريسي الحسي).
- عدم التحويل على الأدلة العقلية في إثبات واجب الوجود، وحشرت الأدلة في العلم الحديث المنهجي أساساً على قاعدتهم المشهورة "كل معقول لا يؤيده محسوس لا يعتد به"، رغم كون القاعدة مطبقة للتشكيك بنفسها لأنها "معقول لا يؤيده محسوس"، فحجم عن ذلك إهمال المنطق والعلوم التحريدية، وحشرت الثقة في المحسوس، وهذا ما يفسر المضحكات التي تعرض لها علم الكلام.
- الفصل بين الدين والسياسة، وقد خدم هذا المبدأ بطريقتين اتحدت أولاهما الطريقة المباشرة كالحجوة التي قام بها الشيخ علي عبد الرازق، وسلكت الثانية طريقاً غير مباشر من خلال إحراج الفقه من دائرة الدين وفق ما ذهب إليه الشيخ محمد مصطفى الراعي، ويقترب منه قوله بجواز الشك بالقرآن المترجم.
- ظهور محاولة إنقاذ الدين من العقل وفق ما قام به الفيلسوف الغربي "كنت" حينما أقام دليل العقل العملي على وجود الله (دليل الأخلاق). ومنه هذا الرأي التأسيسي للعقيدة المسيحية التي لا تتلايم والعقل، لهذا عذت محاولة التسخ على مولانا متجاوزة لكل مسلمات العلم، إذ تختلف القديانة الإسلامية عن القديانة المسيحية المحترقة في أساسها العقدي. فأساس الأولى الفصل بين عالمي العقل والقلب الذي من مهماته العقيدة والإيمان، تخلاف ما هو عليه الإيمان في الإسلام، فهو



- حاول بيان المرض العقلي الذي هيج على العقليات في مصر الحديثة نظراً لخطورته البالغة، إذ يرجع إليه حسب تقديره سبب هلاكها في الدنيا والآخرة إن بقي الأمر على حاله.^(١٨)
- الدعوة إلى إصلاح الأوضاع العلمية في العالم الإسلامي، بصفته الطريق الوحيد للنجاح السياسي والاجتماعي في الحاضر والمستقبل.

موقفه من المجمة المنظمة على العلوم الإسلامية

عمل الشيخ على عدة جهات لمداواة المحمات التي تتعرض لها العلوم الإسلامية إرضاء للفكر الغربي الحديث، وهذا الاتجاه قام بجهود حثيثة في المطارحات الإعلامية والسياسية والتعليمية، وقضى هذا المسلك في الجهود الآتية:

- العمل على بيان الخلل الطارئ على العقلية الإسلامية وخاصة في تسليم زمام أمورها إلى الفكر الغربي ممثلاً في الفلسفة الغربية ولا سيما الوضعية، وقد سعى جاهدًا في هذا الجانب إلى بيان بطلان أساس ما تنبئ عليه هذه الفلسفة، فبين الفرق بين الدليل العقلي التحريدي والدليل (العلمي) التحريسي، فوهى على تفوق الأول على الثان، بل أساس دلالة التحريسي مبينة أساساً على الدليل العقلي في مرحلة من مراحل الاستدلال أو تبليغ الدليل.

باضل حاملي الفكر الغربي في البيئة الإسلامية فحاول قطع الطريق على أولئك الذين حاولوا التعامل مع الثقافة الإسلامية من مطلق الفكر الواحد، وكان الثقافة الإسلامية عارية عن كل أصالة وقوة إقناع.

- دافع الشيخ عن الخلل المتوقع من تصريحات بعض كبار أعلام المسلمين في العصر الحديث، فدافع عن محركات الأنباء بوصف إنكارها طريقاً ممكناً لإنكار كل ما له صلة بما لم يجيب الذي منه عقائد المسلمين، وما ركب ذلك إلا خوفاً من استئثار هذا الباء العصاب في أوساط الأمة، فإنه إن تمكن منها سيأتي على الأخضر واليابس.

دافع عن موقع الفقه في الشريعة الإسلامية والدين الإسلامي عموماً، خوفاً من بأن اليوم الذي لا تدري فيه كيف تعد الله، وخوفاً من أن يصبح الفقه ليس من الدين على قول بعض العلماء المعاصرين.

موحه إلى العقل في اللحظة نفسها التي يتوجه إلى الوجدان. وقد رام تحقيق هذه المهمة المستعصية الشيخ فريد وحدي، فحاول إقامة البرهان على وجود الله تعالى دون الاستناد إلى الدليل العقلي^(١٩)، وهي محاولة لا يمكن أن تنجح ولا ينجي لها أن تنجح، وإن شجعت إليها من قبل العلة الناجحة، لأنها متصورة في المسيحية وغير متصورة في الإسلام.^(٢٠) فالمسيحي يضطر إلى إهانة عقله ليسلم له دينه، وكذلك الحال بالنسبة للملحد العربي والشرقي، فإنه يضطر إلى الاستهانة بالدين ليسلم له عقله. والمسلم بخلاف ذلك تماماً، فالعقل والدين لا يفرقان حتى عدت عند المسلمين قاعدة مشهورة "من لا عقل له لا دين له".

- تسرب ضلال الاستحقاق بالعقل، وتأصل ذلك بانشار المذهب التحريبي وباء العلم عليه بعد الفيلسوف ليكون، فطق المذهب التحريبي طريق الفلسفة الوضعية على العقائد، وقد زاد الأمر ضاعة ضيوع تقليد كل ما وفد إليها من الغرب أو صدره إليها.^(٢١)

وفي ضوء ما سلف حصر الشيخ مهمته فيما يأتي:

- مكافحة الشبهات ومكافحة مروحيها والكشف عن المكائيم التي يستتر المتبرون لها، حتى يتزاعز مكان الشبهات ومكائيم متبريها في قلوب السلك كاتبين من كانوا، "فتنه الشبهات ومروحيها وتسلم عقيدة المؤمن من ضرورها وتساؤلهم".^(٢٢)

الدفاع عن مركز علم الكلام وإثبات صدقه وصحة استثمار معارفه، والسعي إلى إثبات أن وجود الله لا يمكن أن يستند إلى الدليل التحريسي الخري الذي فتههم، ولا يكون نعر الدليل العقلي، لأن الدليل العقلي أقوى وأقوى وأقوى من الدليل التحريسي.

- محاربة اللادينيون بالقضاء على كل شك يرمون إلى تكريس طريق الاتحاد. وهذا الصدد عمل على شحذ الفهم وتنبيه العقلاء إلى خطر تسرب العقليات الغربية المأثورة للدين إلى آذهان المقلتين المسلمين، ويتطلب هنا الجهد سرد شواهد من كلمات رجال يستدل بأهميتها مراكزهم الرسمية والأدبية على أهمية المسألة^(٢٣)، شذا اضطر إلى تفحص أقوال وأدكار الفلاسفة الغربيين وأيد رأيه بكثير من أقوالهم وتصريحاتهم.

أصول الدين^(٩٠)، لهذا عرف بين أهل الاختصاص بسعة الاطلاع والقدرة العاقبة على المناظرة.

قال عنه حب الدين الخطيب "فحل الفحول الصائبل الذي يعد فضله أكثر من فضل معاصريه"^(٩١)، لأنه دافع عن الإسلام في أيام كان فيها الانقراض على الإسلام باسم الإسلام ومباركة علمائه. وقال عنه الشيخ زاهد الكوثري "قوة عين المجاهدين"، وقد مدحه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قائلاً "إن كتابه موقف العقل هو كتاب القرن بلا منازع"، وقال الشيخ الوطي عن كتابه آف الذكر "هو كتاب لا مثيل له".

جوابه الأخلاقية

عاني شيخنا رحمه الله طوال حياته من الفقر الذي كان به فخره؛ فقد عاش فقيراً ومات على تلك الحال غير أنه جمع حطام الدنيا. وأكرم شاهد على ما ذهبا إليه اضطراره إلى بيع كتبه ليحصل على ثمن تذاكر سفر من قنطرة الثالثة بالياخورة له ونسائر أفراد أسرته، وذلك من الآستانة إلى الإسكندرية، وهذا رغم توليه منصب "شيخ الإسلام" لسنوات عديدة.

وكانت شجاعته مضرب الأمثال بين علماء عصره؛ فقد حارب الاتهامين وعلماء الدين المنغريين، ولحقه من جراء ذلك أذى كبير من قبل المتطفين والساسة. وقد عمل طوال حياته على تغيير الوضع نحو الأفضل، وقد زاد نشاطه منذ أن أحس بالخطر المحدق بالدين الإسلامي في العالم الإسلامي، وبقي على ذلك المنهج غير متزعزع أو مستحيب لترغيب أو الترهيب.

عادونا الشيخ مصطفى حسري رحمه الله إلى عالم الخلود من الأنبياء والشهداء والصالحين بمصر ٧ رجب ١٣٧٣هـ الموافق ٢ من مارس ١٩٥٤ م. رحم الله شيخنا وأحرل موتونه، ولنعنا بتجربته وأفادتنا من علمه، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير. ■

^(٩٠) جامعة الخوارزمية / الخوارزمية.

المواضع

^(٩١) موقف العمل، ٣/٩٢٣/٣٨٩.

^(٩٢) المصدر السابق، ٤/٣٨٩.

^(٩٣) أنظر: موقف العقل، ١-٦٨، ٤٠٦.

^(٩٤) موقف العمل، ٢/١٥٧.

^(٩٥) المصدر السابق، ٣/٣٣٣.

^(٩٦) المصدر السابق، ١/٤٤.

^(٩٧) المصدر السابق، ١/٤٤.

^(٩٨) المصدر نفسه، ١/٦٦.

^(٩٩) المصدر السابق، ٤/٣٨٧.

^(١٠٠) مقال حب الدين الخطيب، مجلة المنهج الإسلامي، العدد ١٩٤.

- دافع عن الحديث النبوي ضد أولئك الذين اختصروا الحديث الصحيح من الكتب المدونة بسبعة فواحد من مائة وخمسين حديثاً، بناء على تفسير خاطئ لقول البخاري بأنه لم يصح عنده إلا أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث، فراعوا تطبيق القاعدة على الأربعة آلاف حديث التي استحالت من ستمائة ألف حديث. ونظراً لبطالان هذه الأفكار، بل وخملها بذرة الفناء فيها، فقد أفل نجمها وقويت إلى غير رجعة وعادت للسنة مكانتها في البيئة الإسلامية المعاصرة.
- دافع من مطلق معري عن وضع المرأة في الإسلام، وناقض ما بهياً من قوانين وتصورات يراد فرضها على الأمة. فكتفت بأسلوب رائع أمل الداء الذي حاولوا تسويقه في مجتمع النساء، ولرُجح الداء كله إلى تقليد الغرب حتى في أوضاعه التي لا تسد عليها، فأريد تحويل المرأة إلى سلعة تتداول وتتفاقمها الأجسام الآسفة ذات الروائح الكريهة أولئك الذين لخصوا وجود النساء في للعة واللذة ففقدوا إنسانيتهن وأسروا لشهواتهم.
- أرجع الحل في الإصعاب بالغرب في السياسة إلى الخلط في التكوين الثقافي. فالمسألة السياسية ترجع أساساً إلى خلفية ثقافية يجب أن يبدأ الإصلاح منها. فالإصلاح الثقافي أصل الإصلاح السياسي، فلما رتب الشيخ الأولويات في بداية عهده عندقاعة العمل السياسي الأعرج الأخرج الذي يراد فرضه على البيئة العثمانية الحديثة، ولكن لما ينس من نجاح محاولات الإصلاح السياسي المباشر سواء بطريق الحوار والمطالبة الفكرية، تأكد أننا إنما لدغنا من جهة الثقافة والتكوين الدقيق في العلوم الإسلامية. ومن ثم مال إلى طريق الإصلاح العلمي بالتأليف والصحح المستمر للمسلمين وعلمائهم. وأكرم شاهد على ما ذهبا إليه آخر كتبه تأليف كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين". فقد بين وبما لا مزيد عنه أن مشكلتنا ثقافية بالدرجة الأولى، ويجب تعهدها بالإصلاح والتشبيح والتيسير في كل الأوقات.

أقوال العلماء عنه

تكاد تنف كلمة الباحثين المعاصرين على أن الشيخ مصطفى حسري نسج وحده لا مثيل له بين بني عصره. فقد ظهرت ميوله إلى العلوم العقلية من كلام وفلسفة ومسطق وما شاكلها من معارف منذ الصغر، يؤكد ذلك قوله عن نفسه: "الاجتهاد في العلوم العقلية يلتزم مع فطري ومراحي والتي لا يتعد عنها علم

كأني أكلت

جمال أمين*

ل

كان شريط المساجد الملامع علقاً في جدار ذهنه الشيخ بالغاذ الروحي. الشيخ إسماعيل ألندي حمامة مسجد كما يقول عنه تلاميذه المختص.

كبابه الجامع، ذرات مطرله البينساء، طائرته الإيماني الحلقي في الأعالى، يسكن كلها مآذن وقباب إسطنبول المشوّهة بالندى والظهور. المساجد السلطانية العملاقة تستعطن أحاسيس الدافئة... أدناها للطلول للغوم... انبها لها القدية المشوّهة... ترابها الغرسة بالأخنان المرشوشة الغضة. ويلج ناحاتها العسجة مدّ البصر، يواجهها الرحامية للضفولة، مبنوت قلبه الرهيف، وتلبسه أحاسيس سلطانية عظيمة، أعظام تناف، وسواعد متوضعة، وعمايل حجارة متفاعة بعباية، و"سدان" المعلم العظيم يرثسها بلمسات فنه الساحر للتكلم.

كان يسبح بإصربه مدهولاً وهو يلج لصدقات الكتونة بسر السماء، وخصه بحاربها الفارحة... أعمداها الأسطوانية الرائضة... قبابها الأهرامية السماوية... لغات كثر فاجي قلبه المدهول... تبيتع بفسادها الساحرة الضوء لتفكسر المشعث الشمس، تلون الظلمة وموسى السابغ، الخط المعشوشب الفدان، الزجاج الصبغسائي المزركش، رحلاه لا قويان على حمل

عرايين علسفه للتهدل "بالدهن" و"العطش". كم نفس ثبال قمرء في باحة مسجد "القالح"، قرب الضريح الرحامي الخاتم في طلال الشجر العيان، بسنل أحلامه الشنوية، بلاجي عراسها الخيوة.

إن ما يلفقه ومعه هو صيق ذات بسده، والجباس حياته في دارة العطايا السورة المتقطعة. منذ لزوجته الأيكر إلى إسطنبول رفة حبيبه الروحي وهو يعيش في طلال النكبا والزوان، بين مهمات المذاكرين، ولوسلات الزائرين، ورباطات المريدن، إلى أن ورت (سسر) المشبعة الروحية تراو به للتواضع، فزادته أعباءه أقالاً من إشراف على مواسم تعبدية خاصة، واستقبال للعطايا والنيات المشوّهة، واحتفاء بالصيوف والروار الوالدين،



لث هذا الألق النبوي... لو وضعت سنوات الروايات وانكسارها في
كفة أخرى لطاشت بالأولى ثقلها (الأخروي).

تذكر في عمرة هذا التحول النفسي/الكياني "سمر" عظمة
السلطين الأوائل... سر امتدادهم التاريخي الحصيب في حنايا
المعمور وثنا الدور... إنها المساحد/الأهرامات التي تنتشر في
شفاط السفسور كأزهار الأفقوان مفتحة باسمه قبالة السماء
المعسولة. "إنك يا إسماعيل متشاقب عظمتهم الأخروية بعد أن
غلبوك في عظمتهم الدنيوية، تنتشر ذكرك هذا المجد المزعود في
عالم الآخرة، وهي خير وأبقى". هكذا حدثت نفسه القلقة.

قرّر مصمما في عمار ثغولاته سلوك رياضة نفسية جديدة تحقق
له حلم حياته الأخروية. إنها "لعبة الوهم" المتبادل بينه وبين نفسه،
وهم التشبع بلذات الأطعمة والأفريجة، وهم الموائد الممدودة الحافلة
في التواسم الكرورة والضيافات المتعددة. قرر تحطيم وهم "التشبع"
بمغول إثماته الأخروي... "الاستغناء" و"الادخار" عما شاعره الجليل
في رحلته الجيلية الجليلة، وهو يتوقل حرون النفس وقرارها.

فألت عنه زوجته: "كلما أخبرت زوجي بأطياب الطعام
التي شئتني له، رفض ذلك ورد ثلثها وأبقى على الثلث
فقط، مدحرا ثغورها في صندوق حشوي مرددا جملة غريبة (كأنني
أكلت... كأنني أكلت...)"

وقال عنه جاره البقال (ف): "كلما همّ الشيخ إسماعيل باقتناء
فواكه الصيف النضيجة كعادته، أسرع بإرجاعها كمن لدغته
أفعى قاتلة مرددا كلاما غريبا (كأنني أكلت... كأنني أكلت)".
وقال عنه مريده: "إن طقس (الانكباب) الذي حلّ شيخنا في
سنواته الأخيرة أصابه بالتدبول والذهول، فلا هم له إلا الادخار في
ذالك الصندوق الخفسي العتيق مرددا جملة المأثورة (كأنني أكلت
... كأنني أكلت)".

وقال عن الباء (ك): "كان الشيخ إسماعيل يتعهد بناء مسجده
الصغير بالمراقبة اليومية، بل كان يساهم بوضع لبنائه الصخرية
بيديه للتوشتين. وكلما استطال البناء أبصرت وجهه الواصل
يستتر بنور سماوي غريب كأنه فلق الصبح الأغر".

وحين استتم الخدم الأخروي شكله الصخري المستدير،
واستكمل زيتته الخرفية للتواضعة في طابقه الصغيرين، عقد فيه
الشيخ إسماعيل أولى حلقاته الدنية معلنا لطلابه وزواره أنه قرر
تسميته جامع "كأنني أكلت". ■

وإنفاقات متواصلة على تلك المراسيم والموائد. فما يأتي به هر اليوم
ينقلعه بحر الغد. والدائرة تدور، والأيام تدول، ورحى العمر تطحن
الغائب الخسائر، وظلالها تهت وتصفرف بفعل اليوسرة الراحقة،
وصراع محموم بدأ يشتعل ويتنطق بين عقله السوول وقلمه الملول،
بين طموحه الأخروي والندابه الدنيوي، بين رسوم العادة وعبادة
الرسوم، بين ولائم الطاعة وطاعة الولائم... بين وبين وبين...
دوامه عاشها وهو يتربع على عرش المشيخة بين أتباعه ومريديه.
قال عنه مريده (ن): "إن شيخنا إسماعيل أصابه ما أصاب
شيخنا جلال الدين الرومي مع التبريري من خلوة عن الأتباع
والزوار وسباحة الفرداية في مساحد استبول العتيقة". وشاهده
مريده (ق) وهو يتسلق قمة (شامليجا) قبل الغروب، متعتدا مكانه
المعلوم قبالة المساحد/الأهرامات مذهولا... مشبها... مثاعا.
ورافقه صديقه الدويش (ع) وهو يطوف عماسد السليمانية
والفانج والسلفان أحمد، لا تطرف له عين ولا يغمض له جفن،
ولا تكل له قدم، ثم يستلقي في أفانها متأملا سارحا يعب من
جمالها المحسند الضافي. وقالت عنه زوجته (ر): "إن زوجي قد
أصابه الذهول والذبول منذ تلك الليلة التي قصاها معتكفا في
مسجد الفانج منتصف رجب الماضي".

كان إسماعيل أفدي مستلقيا في باحة مسجد الفانج، وهو
يستعيد شريط حياته الخافل، ورشاش ريد تلك "الرؤيا" الغريبة
يتملك إجماع قلبه وروحته. في نفس هذا المكان المقدس وفي مثل هذه
الساعة الليلية الواعدة... شاهد في الحلم خيال حميد الفانج قادما
من المحراب الرحامي... يتعصب قبالةه بلباسه الأبيض الناصع...
عطور سماوية تنعم أنفه، صوته البدي يسر في أذنيه حديثا نبويا
مأثورا "من بين مسجدا لله ولو كمفحص قطاة يني الله له بيتا في
الجنة"، ثم يغيب خياله وانتمساءه وضميته ترسم دوائر النور على
وجهه الواصل. يغيب وتغيب منذ تلك اللحظة الفاصلة وعاليه التي
استطاعت مثل الأطاخر حتى غدت محال تخدش إثماته الأخروي.

إن ما يلقفه ويغضه هو ضيق ذات يده بفعل الإسراف المرائد،
والعطايا للهدورة في الولائم والضيافات. جبال من الجليل العائم
الكاذب تحمره عن التحديث والتحليق. وفي مثل لحظة كلعج
بالصبر قرر -وذكرى الفانج لا تطرف عليها في خياله للشبوب-
بناء مسجد -ولو كمفحص قطاة- يكون أساسا ركينا لبيت لا
عنود في الجنان... "يا لروعة التقابل الشهودي العبي ينت شهدا
وحلاوة من كلام الرسول المعلم ﷺ -قال فلث حديثا نفسه-
بيت لله فوق هذا الكوكب الهلوي، وبيت لك في الملأ الأعلى،
أني "وجبة" بحرية يمنحها لك هذا الحديث، أتي مصر حائل بمنحه

٩٩ كاتب وآبيب / الثور. قصة حفيظة جرد في عهد الدولة العثمانية.

حساء



هو ٱفوق الوصف قاطبة من حيث جواهره ومكانته،
فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية،
وضيائه لمحت به الألسن قبل وجوده،
فهو باقي الإنسانية من جديد، وقدمه إحسان للإنسانية جمعاء...

ISBN: 9961-18799



9 771306 18799 05
www.hisamigultra.com